بيار غريمال

الميتولوجيا اليونانية

ترجمة
هنري زغيب

منشورات عويدات
بيروت - باريس

بيروت . باريس

الطبعة الأولى ١٩٨٢

مقدمة

الأسطورة في فكر قدامى اليونان

تختصر كلمة « الميتولوجيا » اليونانية ، مجموع الروايات المدهشة والأساطير المنوعة ، التي تدل نصوصها وآثارها الباقية ، على أنها حدثت في البلدان الناطقة باليونانية ، ووقعت بين القرنين التاسع والثامن قبل المسيح ، الفترة التي نقلتها الينا الأشعار الهوميرية المكتوبة في القرن الثالث أو الرابع بعد المسيح . وفي ذلك المجموع ، مادة ضخمة ، صعبة التحديد ، متنوعة الأصول والكتابات ، لعبت في التاريخ الروحاني للعالم ، وما تزال تلعب دوراً غير عادي .

جميع الشعوب ، في مرحلة من تطورها ، حاكت لنفسها أساطير ، اي روايات مدهشة أضافت اليها ، الى حدّ ، بعضاً من إيمانها ، لتصدّقها أكثر . والأساطير غالباً ، لأنها تُدخل فيها قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر ، تدخل في نطاق الدين . فتبدو ، عندها ، نظاماً شبه متماسك لتفسير الكون ، على لسان كلٍّ من الأبطال الذين تروى رواياتهم ، يكون خالقاً لها ، وسبباً في نتائج يهتز لها الكون كله .

الى نموذج كهذا ، تنتمي كبرى القصائد الملحمية الدينية في الأدب الهندي ، بينما في البلدان الأخرى ، يطغى العنصر الملحمي وحده . طبعاً ،

لا يغيب الآلهة عن النص ، حيث فعاليتهم قوية ، انما تكوين العالم ليس مطروحاً بالحجم الكبير . فالبطل يكتفي بتسديد ضربات قوية من سيفه ، وباختلاق أحابيل قوية ، والقيام برحلات الى بلدان مذهلة ، واذا ما تخطى المقياس الإنساني ، يبقى من جوهر الإنسانية نفسها .

الى نموذج كهذا ، تنتمي ، خاصة ، الدورات الأسطورية لدى السلتيين والتي نعرفها من الروايات الغاليّة .

وفي مواضع أخرى كذلك ، آلت روايات الأسطورة الى فقدانها كل طابع مدهش ، وإلى ذوبانها في مظاهر التاريخ . فالرومان ، في شكل خاص ، يبدو أنهم أدخلوا ، هكذا ، في أقدم تواريخهم ، تحركات أسطورية حقيقية : فبطولة هوراتيوس كوكليس [1] المدافع عن جسر التيبر ضد المجتاحين ، ليس - كما يقال - سوى آخر مسخ لشيطان أعور ، كان لتمثاله - على ضفاف النهر - ان يفقد معناه الأساسي ، ويتحول مقاطع حول المعارك بين الرومان والأترورريين (غربي ايطاليا) .

الأسطورة ، في اليونان ، تساهم في جميع هذه النماذج ، فهي حيناً تتخذ لون التاريخ ، فتحمل طابع النبل في المدن أو السلالات ، وحيناً آخر تسهم في دعم أو تفسير المعتقدات الدينية . وليست غريبة عنها ، أية واحدة من الظروف التي تحيط بالأسطورة عامة ، لكن لها مدلولاً آخر . فكلمة « أسطورة » ، بالمعنى الحرفي اليوناني ، تنطبق على كل حكاية تروى . سواء كانت موضوع تراجيديا أو عقدة كوميديا أو قصة خرافة من ايزوب . ان كلمة « أسطورة » تعارض كلمة « العقل » (« لوغوس »

(١) سنعتمد ، في ترجمتنا الأسماء ، اللفظ الفرنسي (المترجم)

اليونانية) ، كما كلمة خيال تعارض كلمة منطـق ، أو كما الكلمـة التـي تروي ، تعارض الكلمة التي تبرهن ، من هنا ، ان كلمتي « لوعـوس » (العقل) ، و« ميتوس » (ما يتنافى والعقل) ، هما نصفـا اللغـة ، وهما وظيفتان أساسيتـان (« ميتـوس » و « لوغـوس » = ميتولـوجيا) من حياة الفكر . وكلمة « لوغوس » ، إذ هي استدلال برهاني ، تهتم بالإقناع ، وتجعل عند سامعهـا حاجـة تحججـه بحـكم منطقـي . اذن ، يكون الـ «لوغوس» صحيحاً، اذا كان قوياً ومطابقاً للمنطق . ويكون خاطئـاً اذا كان يخفي بعض المكر الخفي (فيصبح « سفسطة » أي مغالطة منطقية) . لكن « الأسطورة » لا غاية لها الا في ذاتها . نصدقها أو لا بإيمان لدينا ، اذا وجدناها « جميلة » أو واقعية ، أو اذا أحببنا تصديقهـا . بهـذا ، تجـذب الأسطـورة حولهـا كل حصـة اللامعقـول في الفـكر البشري : من هنـا ، قرابتها ، من حيث طبيعتها ، مع الفن في جميع ابداعاتـه . وهنـا ربمـا ، الطابع الأخّاذ في الاسطورة اليونانية : دخلت في جميع نشاطات الفـكر . ومن هنا ، يعاد اليها في جميع قطاعات الحضارة اليونانية ، من فن وأدب . فالأسطورة ، عند اليوناني ، لا تعرف حدوداً ، بل تدخـل في اينما كان ، وهي ضرورية لفكره كما الهواء والشمس لحياته .

أقدم ملحمتين معروفتـين اليوم في اللغـة اليونـانية ، وهما « الإلياذة » و « الأوديسيه ، » صارتا من « الأساطير » ، في المعنى الواسع للكلمة ، اذ فيهما مزيج متلاحم من البشري والفـوق البشري . فأبطـال « الإلياذة » ، أسلافهم ، بل أهلهـم ، من الآلهة ، وسلالاتهـم من العائلات التـاريخية العريقة : أشيل ، هو إبن تيتيس, الهة البحر ، وقدره محتوم بوحي إلهي منذ الأزل والى الأبد. وهذه هيلين، رهان حرب طروادة ، هي إبنـة زوس ،

وتشاء إرادة أفروديت الهة الحب أن تدفعها الى ترك زوجها وإبنتها حين جاء باريس الطروادي يلقاها في سبارطة . وفي المعسكرين معاً ، يشترك الآلهة والالهات في المعارك : أبولون حامي باريس ، مهاجماً بشخص أحد كهنته الذي خطف إبنته الآشيّون ، يزرع الطاعون في صفوف جيشهم . عندها بوزييدون وأتينا وآريس يتدخلون في الصراع . وتشهد مآثر آشيل على أهمية البطل الشخصية ، وكذلك على الحماية الألهية التي لا تتخلى مطلقاً عنه .

والأمر كذلك في « الأوديسيه » . فالنسب الالهي لأوليس ، وإن كان أقل رسوخاً ـ ثمة حوله عدة أقاويل بينها انه الإبن الحرام لأوتوليكوس ابن هرمس ـ لكن الالهة اتينا تبقى هي حاميته ، وهي التي تنقذه من غضب بوزييدون ، اله البحر ، وحقده .

والملحمة اليونانية ، من جوهرها تمجيد صراعات البشر ، وتعظيمهم ، من خلال الأسطورة ، الى مستوى الكون . ورواياتها ، في حرفيتها ، تشهد على إيمان ديني عميق : فهذا زوس وآلهة الأولمب يتدخلون مادياً في الشؤون البشرية ، فيمنحون البشر عطاءات ، ويهدئون أحاسيسهم ، ويسترضون خواطرهم . لكن تمثيل الأسطورة نفسه ، ينهد الى تجاوز هذه المادية الضيقة . فحين زوس يزن ، في ميزان كبير ، أقدار أشيل وباتروكل اللذين يتبارزان في اقتتال فردي تحت أسوار طروادة ، يصعب تصديق أن يونان العصر الكلاسيكي كانوا يؤمنون بصورة هذا الميزان الكبير الذي تصل كفة منه الى السماء فيما الكفة الأخرى تغرق في ظلمات الجحيم . يصعب ذلك ، حتى ولو اعتقد اشيل ، في مسرحية له فُقِدت ، انه يمكنه حسياً ، تمثيل تلك الكفة المرجحة لوزن النفوس .

الأسطورة ، ليست مضغوطة في تعابيرها . فهي ترسم صورة ، أو رمزاً ، لحقيقة لا توصف الا هكذا . وقد يجوز أنّ هذا ، في نظر الشاعر ، أسلوبُ تعبير ، من خلال مقطع شعري ، أو شكلُ ايحاء يساعد على فهم سر الكون ، دون أن يؤخذ على حرفيته الضيقة .

بالطريقة نفسها ، كانت المعابد المرفوعة الى الآلهة ، تقدِّم ، على مدخلها ، مقطعاً مميّزاً حول أسطورة الإله أو الالهة ، صاحب أو صاحبة المعبد . فعلى المدخل الشرقي من البارتنون مقطع حول مولد أتينا العجائبي ؛ وعلى المدخل الغربي ، حول صراع بوزييدون وأتينا وكلٍّ منهما يطالب بإمتلاك التراث اليوناني . هذه الصور ، تجسّد ـ بشكل عام وأفضل مما يستطيعه اي تصوير بالكلمات ـ شعور الاثينيين بمدينتهم وبأنفسهم : ف « أتينا » المولودة من رأس المعلم الأكبر ، دون والدة ، هي تماماً كما الشعب الأتيكي الذي « خرج من الأرض » ، لكنها ، هي حصيلة اتحاد والدها بالحكمة (ميتيس) ذات يوم . من هنا أن ديميتيه وكوريه ، والأرض والنبات ، ينتظرون اعلان الولادة العجائبية . ولن تلبث الآلهة ، على أرض تغمرها عطايا البحر ويبللها الملح ويلفّها الهواء البحري من بوزييدون ، أن تُنبِتَ الزيتون ، وهو ـ بين الأشجار ـ الأكثر بطئاً وحكمة وإشعاعاً . وأسطورة أتينا ، وإن لم نعد نؤمن بحقيقتها الحرفية ، تبقى ذات تأملات لا نهائية ، وتبقى كما نهدة لم تخبُ قوتها ، ولو بعد عصور طويلة .

والأسطورة ، إجمالاً ، اذ هي من مخبأ الفكر ، آلت الى حياة لها خاصة ، في وسط المسافة بين العقل والايمان . ومنها تنبع جميع تأملات اليونان ، ومن بعدهم تأملات أحفادهم . ومن الأسطورة ، استمد الشعراء المسرحيون

مواضيعهم ، والشعراء الغنائيون صورهم وخيالاتهم . من هنا ، أن بروميتيه وأوديب وأورست كانوا ، في الأساس ، أبطالاً أسطوريين . ومن هنا أننا وجدنا صور أشيل وأوليس وجنون أجاكس ، محفورة على أباريق وكؤوس وأوعية مختلفة ، مما مزج الأسطورة بالحياة اليومية فصارتا متلازمتين . وصارت هذه الصور ، في البيت كما في المسرح ، رفيقة مطبوعة في الذاكرة ، تحتل مكانها في المخيلة والصدارة في المفاهيم الخلقية .

حتى الفلاسفة ، حين بلغ المنطق ذروته ، لجأوا الى الأسطورة كما الى نبع معرفة يكتشف المجهول . فإذا أفلاطون ، في « فيدون » و « فيدر » و« المأدبة » و « الجمهورية » ، يمتد بفلسفته حتى جذور أساطير كان هو يخترعها .

لذا يعتبر المؤرخون ان إنتشار الأسطورة والانفلات في تخيّلها واختراعها ، كانا الركيزة الأساسية التي حملتها الحضارة اليونانية القديمة الى الفكر البشري . وبفضل هذه الحضارة ، سقط الرعب عن كل ما هو « مقدس » ، وانفتحت بقعة مهمة من الذات الإنسانية فصارت مباحة للدرس والتأمل .

وبفضلها كذلك ، اكتسب الشعر نفحة الحكمة .

الفصل الأول

الأساطير والميتولوجيا

إنّ الأدباء وقدامى العلماء الذين استخدموا المعطيات الأسطورية ، أو جمعوها لذاتها ، لا يمكن لعملهم ان يخبىء التنوع المدهش ، بل التفكك الذي تمثله هذه المعطيات .

صحيح ان هومير وهيزيود وبندار وإشيل يوحون بإرتباطهم بنظام أسطوري محدد واضح ، للآلهة فيه والأبطال طابع دامغ لا يتغير من أسطورة الى أخرى ، لكن هذه ، تصورات خاطئة ، ناجمة عن كون هؤلاء الشعراء (إلاّ هيزيود صاحب « التيوغونيا » ـ نسب الآلهة) ، يمارسون الايهام ، ولا يعرضون ، تعليمياً تقنياً ، السلالات الإلهية أو الروايات التي يستشهدون بها . انما ، حتى في هذه الظروف ، يكفي تحليل دقيق لإيضاح الفوارق والتناقضات بين الأدباء ، أو حتى لدى الأديب الواحد نفسه . فالوحدة لم تدخل الا في شكل ثانوي واصطناعي . والأساطير لا تولد مجموعة منظمة ، كما نظام فلسفي أو لاهوتي أو علمي . انها تنبت من الصدفة ، كما النباتات ، وعلى الباحث فيها ان يجد لها نسباً وسلالات وأنواعاً واختلافات .

فحول نقطة أساسية ، ظاهراً ، كولادة زوس كبير الآلهة ، ثمة روايات مختلفة . أشهرها تجعله ولد على قمة « إيدا » في جزيرة كريت . انما ، في

الجزيرة نفسها ، كانت قمة ديكتيه تطالب بالشرف نفسه ، وكان ، غربي بيلوبونيز غير بعيد عن ميسينا ، نبع يسمى كليبسيدر ، يقال ان حدّه وُلِدَ الطفل الإلهي .

وثمة معابد كثيرة وخرافات مختلفة ، لم تصبح متناقضة ، إلاّ يوم أُعلِن عن زوس الكريتي ، شيطان إيدا أو ديكتيه ، وزوس المسيني من قمة ايتوم . والتناقض هنا موجود داخل الميتولوجيا اليونانية نفسها . لكن تركيب هكذا ميتولوجيا ، ليس بدائياً ، بل هو ناجم عن إنطباع مسبق حول الأسطورة وتركيبها .

احياناً ، تصادفنا صعوبات يصعب حلُها ، متأتية من كون الأسطورة نمت في أزمنة وحالات إجتماعية أو تاريخية مختلفة . فسلالات الأتريديين يحدثوننا عن أسياد ميسان ، وأسياد تيرنت وأسياد أرغوس ، وثمة صعوبة قصوى في التمييز بين هذه الممالك . ويتضح كل لبس ، حين نعرف أن تطور تيرنت وميسان ، ليس معاصراً لتطور أرغوس . والأسطورة المحلية في ميسان ، التي كانت تجعل « ملك » البلاد يتدخل ، تصير مفرغة من معناها في الفترة التي لم تعد فيها السلطة في ميسان بل في أرغوس . والكاتب ، كان ، عفوياً ، ينقل أحداثه ، لكن عناصر محلية بحتة ، كانت تبقى ، وتجر إلى اللبس . وهذاهو ما جرى لمجموعة من الخرافات التيسالية ذات الأصناء في بيلوبونيز . فهذه كورونيس ، حبيبة أبولون ووالدة اسليبيوس اله الطب ، تُذكَر على أنها ابنة فليجياس التيسالي . لكن معلومات أخرى ، من الزمن نفسه ، تقول أن فليجياس كان في الحقيقة من سكان أبيدور في بيلوبونيز ، مما يفسر أن عبادة اسليبيوس أزهرت في أبيدور . وهذه التناقضات ، تعكس في الواقع زمناً كان فيه الشعب نفسه يمتد من تيساليا إلى أبيدور ، (أو أنه هاجر من تيساليا إلى بيلوبونيز) قبل أن تغمره

جحافل المجتاحين الذين نزعوا منه شعور الوحـدة المتماسـكة . لكن هذه الوحدة لم تعد حية إلاّ في نطاق الأساطير وأسماء الأماكن . ومقابل تشابه فليجياس الأبيدوري وفليجياس التيسـالي ، يقـوم تشابـه لاريسـا المدينـة التيسالية ولاريسا المواطنة في أرغوس .

واضح ، من هنا ، ان الأسطورة ليست واقعاً مستقلاً ، لكنها تتطور مع الظروف التاريخية والاتنية ، وأحياناً تحافظ على شهادات غير متوقعة حول حالات منسية ودول زائلة . هنا ، تبدو الأسطورة وسيلـة تقصٌ ثمينـة ، وهي ـ اذا تخلينا عن منطق ما قبل عصر أو اثنين من ان الأسطورة دائماً تحوير للتاريخ ـ تبقى اليوم موضوع سؤالنا لها عما تحفظ عن المكان والزمان اللذين نبتت فيهما . وعلماء الميتولوجيا المعاصرون ، أكثـر رهافـة من أسلافهـم القدماء ، تجاه التغير . انهم يتحدى بعضهم بعضـاً حول أساطـير صارت متكاملة ، وترابطها يفضح التفاصيل التي قد تطرأ عليها مع الزمن .

إنّ العمل على الأساطير ، بدأ منذ زمن بعيد ، والذي نقطفه غالباً من النصوص ، ليس سوى حصيلة تطور طويل . هكذا ، إجمالاً ، « المنابع » الكلاسيكية للميتولوجيا . ومنذ أواخر القرن السادس قبل المسيح ، كان هيكاتيه كتب أربعة كتب حول السلالات ، لم يصلنا منها جميعها الا بعض الفقرات ، لكن عقيدته ومبادئه انتقلت الى أحفاده واتباعه ، وهي طاغية على نظريات المؤرخين القدامى ، اكوزيلاوس الأرغوسي وفيريسيد الأثيني وسواهم ، من الذين جمعوا الأساطير ، فكتبوا بها أول صفحة من التاريخ الوطني .

ويبدو أن فيريسيد هو أول من ألقى الضوء على الأساطير ذات الجذور الاتيكية (الأثينية) ، وأول من أقام لائحة « شرعية » لملوك البلدان ، جمع فيها شياطين حقيقيين (ايريختونيوس وصنوه ايريختيه) وشخصيات تاريخية حقيقية . لكنه لم يكتف بتقاليد بلاده ، فأدخل معها أساطير آرجية كانت أساسية لمعرفة « العصور الوسطى » اليونانية . إزاء هذا ، يكون فيريسيد سابقاً لكاتب كبير الأهمية ، هو هيلانيكوس ده ميتيلين ، الذي أهتم بالوقائع والأخبار الآرجية ، وتمكن في كتابه « تاريخ كاهنات هيرا » (وهي كبيرة آلهات أرغوس) من جمع تقاليد مقدسة مهمة ضاع أكثرها اليوم . وهيلانيكوس أول من سمى روما بهذا الاسم ، معتبراً إياها مدينة يونانية تأسست بعد التبعثر الذي تلا عودة منتصري طروادة . والنزعة الأساسية في كل هذه الأعمال والمجموعات ، بين القرنين السادس والخامس قبل المسيح ، كانت الرغبة في تحديد « تاريخ » للأحداث ، تاريخي وأسطوري . ولم يتوضح التمييز بين « التاريخين » ، وهوتمييز معاصر غير محدد في وضوح ، لأن الأسطورة قد تكون تفسيراً للتاريخ ولا معيار مطلقاً في التمييز بين التاريخين . وترتيب الأحداث يبقى مؤقتاً ، إذ الأهم إزاء نقاط ثابتة في التاريخ ، تحديد تلازمات مفترض انها معروفة ، كما سقوط طروادة أو تأسيس الألعاب الأولمبية . والإطار الأكثر تبنياً في هذا ، هو الذي يحدد « الأجيال » ، ومن خلالها الأحداث والأشخاص . لكنّ ثمة صعوبات في هذا . فمغامرات هيراكليس التي تجري في كون نعتقده خالياً (اذ الأسطورة ، في شكلها الأقدم ، لا تذكر لقاء لهيراكليس ، مع أيٍ من الابطال الاخرين) تطرح مسائل توافق دقيقة لأن التقاليد تتحدث عن أولاد لهيراكليس ، وتجعلهم ملتزمين ، في غير موقعة ، مع أولاد تيزيه . فكيف يمكن لتيزيه والبطل الآرجي الكبير ألاّ يكونا التقيا ؟ ان البراعة

اليونانية ليست قط غاية ، وتم تفسير ذلك بأن أعمال تيزيه جرت في أثناء أسر هيراكليس في ليديا ، مع أونفال ، وبأن تيزيه ـ طوال الحقبة الأخيرة من حياة هيراكليس ـ كان موجوداً في الجحيم ، أسيراً لدى بلوتون . لذا ، ثمة مقاطع مدسوسة ، داخل السِّير الأسطورية ، وهي ليست مقاطع بدائية ، بل موضوعة لتحقيق التوافقات التاريخية الضرورية . وتلك الأجيال ، غالباً ما تكون من الأصناء الواجب تفريقها لتجنب التعمير الطويل المستحيل . والعمر الطويل لنستور ، أحد المحاربين مع الآكيين ضد طروادة ، تفسيره ان نستور ثانوي جداً في حلقة هيراكليس وهو اذ كان بعد طفلاً ، حين كان هيراكليس يحارب نيليه وأولاده في بيلوس (من أعمال ميسينيا) ، بات من الضروري بقاؤه حياً حين الغزوة الآكية : لذا اعطيت له سنوات ثلاثة أجيال من الناس ، حتى عمّر الى شيخوخة كثيرة ، وصار مسموع الرأي ، وذا صورة تقليدية تغذي صور الخيال . . .

بهذا ، كان التاريخ خلاقاً ، وهكذا كانت تولد المقاطع المسماة مدسوسة .

مع بداية العهد الكلاسيكي ، تركزت الأطر الكبرى للأساطير ، وبقيت فيها تشوشات عديدة . واعتبر المؤرخون ان تاريخ الأزمنة الخرافية بات ثابتاً ، وراحوا يغوصون على التعمق فيه . وبدءاً من القرن الثالث قبل المسيح ، ظهرت « المجموعات » ، التي بقي لنا قسم منها يحمل اسم صاحبها . بعضها كان مخصصاً لنمط معين من الأساطير . مثلاً : إيراتوستين السيريني، في النصف الثاني من القرن الثالث (ق.م.) وضع كتاب «التحولات إلى كواكب»، جمع فيه جميع النماذج المعروفة للروايات التي كان فيها البطل أو البطلة، لدى نهاية القصة، موضوعاً (أو

موضوعة) في مصاف الكواكب . وظلت هذه العادة متبعة طوال العصور القديمة ، فكان لدينا منها كتب في مغامرات الحب (منها كتاب بارثينيوس أديب نيسيه ، ومعاصر فيرجيل) . وكتب أخرى في الهيولات (نيكاندر اليوناني ، من ق ٢ ق . م . كان النموذج المباشر للقصيدة الطويلة التي وضعها أوفيد في عنوان « الهيولات » زمن أوغست). لكن الباحثين في الميتولوجيا كانوا يتوغلون أكثر ، ليصلوا من خلال ذلك الى جمع كامل التقاليد الأسطورية . وأهم المحاولات في هذا الموضوع ، كتاب ابولودور المعروف : « المكتبة » . وأبولودور كان غراماطيقياً وفيلولوجيا أثينياً من ق . ٢ ق . م . ، خصص حياته لتفسير الشعراء القدامى . وكتابه ، كما وصل الينا ، بقية ما نجا منذ القرن المسيحي الأول . وفيه ميتولوجيا منظمة ، بدءاً من خلق الأشياء والآلهة ، وانحداراً ، مع الأجيال ، الى آخر مراحل الأسطورة ، اي الى الفترة التي تلت سقوط طروادة . ولم تعد الميتولوجيا إلا « جثة مطيّبة » ، ومادة كتبية مفصولة عن منابعها الحية .

والى جانب المجموعات الشرعية الكبرى التي هدفها الأساسي إدخال وحدة مفتعلة ومميتة الى النصوص ، ثمة منابع أخرى ، وأعمال مكتوبة في ذهنية معاكسة تماماً ، وأكثر مطابقة للإهتمامات المعاصرة . أبرز الباقي : « وصف اليونان » لبوزانياس ، الذي حافظ على ذكرى عدد كبير من الأساطير المحلية ، مفرغة من التحليلات الكبرى ، وتكوّن روايات نادرة ما زالت مروية في التراث الشعبي . ولكن كتاب بوزانياس ، كما وصل الينا ، لا يغطي كامل البلاد اليونانية ، لذا ما زلنا نجهل بعض المناطق منها . ولا نسد هذا الفراغ في المعلومات ، الا من شتات المعلقين على قصائد الشعراء ، وهو منثور في حواشي الناشرين القدامى للمؤلفات

الكلاسيكية . وهذا العمل الكتبي المضني ، تم على القصائد الهوميرية واستمر الى ما بعد نهاية الوثنية . والعالمان البيزنطيان يوهانس واسحق تسيتسيس ، تركا لنا سرد وقائع تعود الى عمق العصور القديمة .

هي هذه ، في مجملها ، الميتولوجيا اليونانية : مادة ذات منابع شديدة التنوع ، ومقاطع غالباً سيئة الجمع والترابط ، أضاف اليها عمل العلماء والكتّاب والشعراء أو حذف منها قطعاً وفق أهواء الدارسين ، لكن فيها بعد ، المعطيات الأولى للمخيلة والتقوى الشعبيتين . من هنا ، فيها ، امتزاج العلم والعفوية ، والحي والمصطنع . ومن شرف العلم الحديث بدؤه بتحليل شامل ، يساعد على فهم نمط من التفكير كان ضرورياً للفكر الإنساني .

وإذا أخذنا الميتولوجيا « الكلاسيكية » ، لا في تكوينها وتطورها بل في كليتها الثابتة ، وفي شكلها « الشرعي » ، نجد الأساطير التي تقدمها لنا ، ليست ذات شكل واحد ولا محمل واحد . فبعضها مجموع قصص حول تكوين العالم و «ولادة » الآلهة . ولهذا القسم تصح تسمية « أساطير » في معناها الحرفي . وهي ما سنسميه الأساطير التيوغونية (المتعلقة بنسب الآلهة) ، أو الكوسموغونية (المتعلقة بنشأة الكون) . وهذه النصوص ، جمعها هيزيود ، وهي قديمة قبله ، بعضها يوناني المنبع ، وبعضها الآخر من الديانات الشرقية قبل اليونانية القديمة . مع هذا ، من الخطأ اعتبارها معطيات أولية ، إذ هي غالباً متطورة ، تكونت في الأوساط الكهنوتية ، وراحت تعنى تدريجياً بالعناصر الفلسفية ، في إطار رموز غير شديدة الشرح . وهذه الأساطير بقيت حتى في العصور الكلاسيكية ، وبعدها ، وبقيت عوناً للمعتقدات الدينية ، وبقيت ـ أخيراً ـ جزءاً أساسياً من

الديانات الداعية الى الخلاص والسعادة الأبدية .

إلى جانب هذه الأساطير ،ثمة « دورات » بطولية والهية ، تشكل سلسلة مقاطع من قصائد تاريخية أو قصص تستمد وحدتها من هوية الشخص الذي هو بطلها . وعلى اختلاف الأساطير ، لا تملك هذه القصص أي تفسير كوني . فعندما هيراكليس يحمل السماء على كتفيه ، لا يثبت في هذا الا قوته الجسدية ، ولا يطبع ، به ، السماء ولا الكون . بعدها ، ما همّ أن يكون بطل هذه القصص الهاً (هرمس ، أفروديت ، أو زوس نفسه) أم انساناً مائتاً ، أم نصف إله . فكل أسطورة تتناسب وألوهة ، لا تعود تحمل معنى لاهوتياً . وهذا هرمس يسرق الثيران ويشدها من أذنابها ليتجنب آثارها على الأرض . وهو هنا ، موضوع شعبي معروف لا يمثل أي معنى ديني خاص .

الطابع الأساسي للدورة ، هو تجزيئها . فهي لا تولد كاملة ، بل هي حصيلة تطور طويل ، في خلاله تتراكم مقاطع مستقلة بدائياً ، ثمّ تتحد ، كما ، مثلاً ، مغامرات هيراكليس التي لا رابط بينها . من هنا أن كلاً من الأعمال الكبرى ، مرتبط بموقع أو معبد ، وليس ثابتاً ان بطلها هو دائماً هيراكليس ، رغم ما ورد في تلك النصوص . فالأسد الذي قتله الكاتوس خدمة للملك ميغاريه ، يذكر بأسد سيترون الذي قتله هيراكليس لينقذ منه الملك تسبيوس . والمعطى ، هكذا ، معقول لدى المدلول الغربي الحديث للدورة الهيراكلية : فالسياح اليونان وبعدهم الرومان ، عرفوا هيراكليس في المدن الإيطالية فالغاليّة فتخوم جرمانيا . اذن ، فلعبة التواصل مع الألوهات الأهلية ، دخلت الى دورة العناصر التي كانت ، قبلاً ، غريبة عنها . وصار هيراكليس اليوناني نفسه ميزات من الساميين (غلغاش أو ملكارت) أو من آلهة آخرين اندثر اليوم ذكرهم .

النموذج الثالث للرواية الأسطورية (بعد « الأسطورة » و « الدورة ») معروف تحت إسم « الأحدوثة » . وكما النموذج السابق تحدده أماكن معينة ، وهو لا يتلبس قيمة كونية أو رمزية ، انما ، في حين الدورة تدور حول وجه واحد لبطل واحد ، تدور وحدة « الأحدوثة » في إطار أدبي يتمحور حول ما يسمى العقدة . من هنا ، تصير حرب طروادة ، لا دورة هيلين ولا دورة آشيل ولا دورة البرياميديين ، بل قصة مغامرة طويلة ، متشابكة المقاطع متعددة الشخصيات . والقصيدة الهوميرية الطويلة التي تحمل إسم « الإلياذة » ، لا تفصل إلاّ جزءاً بسيطاً من تلك القصة ، وهو الذي يدور حول غضب آشيل ، أما الباقي فلا ذكر له إلاّ تلميحاً : أي حول العشر السنوات من الأسر ، وغزو المدن الآسيوية ، والحملة التي فشلت مرة أولى ، والإبحار اليائس من ميزيا ، والحملة الثانية ، والرياح الغاضبة التي لا تهدئها إلاّ التضحية بصبية بتول ، ثمّ ، بعد موت هكتور ، حملة آشيل وباريس ، ثمّ السيطرة على المدينة ، وأخيراً صراع النبوءات فصراع العرافين . وهذا كله ، يتخطى اطار الأثر الأدبي . وليس ثابتاً أن كلاً من هذه المقاطع كان موضوع قصيدة ملحمية خاصة . و« حرب طروادة » ، موضوع حر ، أضيف إليه تطويل وتوابع ، في زخرفة تأليفية . اننا ، معها في نصف المسافة بين الأسطورة .والخلق الأدبي . مع هذا ، ثمة فرق أساسي بين الأحدوثة الخرافية ، وخرافة روائي أو شاعر : اذ مرّ وقت كانت مغامرة هيلين معتبرة فيه حقيقية . مع أن أبطال الرواية لم يتلقوا قط مظاهر عبادة . لكن هيلين ، كما المعروف ، إلهة « ساقطة » ، إلهة خيالية متعلقة حتماً بديانة الشعوب الما قبل اليونانية في بيلوبونيز . من هنا وجود «قبر هيلين» ، و«قبر مينيلاس» ، و«قبر آشيل» حيث ضحّى الإسكندر ذات يوم . وفي نظر اليونان ، كل هذه روايات حقيقية ، وان كان خيال

الشعراء زخرفها بتزويق أدبي . فأبطال الأحدوثات الخرافية قد ينتمون الى جميع الفنتزيات ، دون أن يصطبغوا بها مهما كان الأثر الأدبي الذي يضمهم .

أخيراً ، واذا تعمقنا بعد في التحليل ، ما نلاقيه ليس مجموعاً خرافياً ، بل مجرد روايات « أولية » ، وأخبار قصيرة تبريرية ، أي تفسّر تفصيلاً مدهشاً من الواقع : انحرافاً في طقس ديني ، أو تقليداً أو شكلاً خاصاً لصخرة ، أو تناغماً في اسم علم . من هنا ما وجده الباحثون في أحد هياكل قبرص ، وهو تمثال إمرأة منحنية الى الأمام ، شهادة على طقس منسي ، ممثلة سحر الخصب . ولتبرير هذا الوضع غير المألوف للتمثال ، فسر الخبراء ذلك أنه جسم انقلب حجراً لجسد فتاة صعقها الآلهة وهي تنظر من النافذة ، وحول ذلك ، نسجوا قصة حب - وهي هذه - أسطورة أناكساريتيه التي قتلت قسوتُها حبيبها ، ولم تعد لديها رغبة إلاّ ان ترى ، من النافذة ، موكب جنازته ، وانقلب قلبها صخراً ، فصارت تمثال حجر ، وضع في هيكل أفروديت وصار خالداً .

ثمة غيرها ، روايات مشابهة حول أسماء الأماكن ، وجميعها مبنية حول اللعب باصل اشتقاق الكلمة . والخيال الشعبي لم يخترع قط ما يفسرها . من هنا ان التنوع في أسماء السواقي - وهي ظاهرة يعرفها الجغرافيون من أن كل مجرى ماء يحتمل عدة تسميات ، حسب السكان الذين حوله - خلق تنوعاً في مادة الكتابة . وكذلك رسوم الكواكب ، وسير كوكب ، يُلقى عليها حب أو حقد يستمد جذوره من مغامرة جرت لأشخاص انقلبوا الى كواكب بعد تلك المغامرة .

إذن ، فالمادة الأسطورية تتصنف في عدد من الفئات التي تسهل التحليل . إنما يجب الحذر من الوقوع في متاهة التصنيف . فالأسطورة

الكوسموغونية (المتعلقة بنشأة الكون) قد تنحدر الى دورة أو أحدوثة . والأسطورة التبريرية قد تدخل في الدورة أو الأحدوثة في سهولة تامة ، فالخرافة نفسها ، يمكنها ـ حسب تزويق الكاتب أو التزاماته الروحية ـ ان تتخذ طابع رواية أو طابع إيحاء صوفي . وهذه الطواعية في الأسطورة متلازمة وطبيعتها : فهي ليست طابعاً مكتسباً في ما بعد ، بل ميزة أساسية للأسطورة ، حية منذ الحقبة الأولى في تاريخ الأساطير .

وكما لدى جميع الكائنات الحية ، لا يمكن التشريحات محو أنّ الواقع النهائي للميتولوجيا يكمن ـ لا في أعضاء متفرقة مبعثرة ـ بل في جسم متكامل ذي نبضات وتغيرات لا الى توقف .

الفصل الثاني

الأساطير التيوغونية الكبرى

جميع الشعوب [1] ، في فترة من تاريخها ، أحست بالحاجة الى تفسير الكون . واليونان كذلك ، كما سواهم ، إنطلاقاً من مبدأ محرك في داخل الذات ، ظنوا أنهم وجدوا التفسير في الحب فقالوا انه ، في البدء ، كانت نيكس (إلهة الليل) ، ومعهما أخوهما ايريب . وهما وجها الظلمة في العالم . نيكس في الأعالي وايريب في الجحيم . وهما ، معاً جوهران يتعايشان في حضن السديم الأكبر ، الذي هو الفراغ ـ لا فراغ الفيزيائيين والعلماء السلبي واللاموجود ـ بل فراغ متكامل قوي ورائد في الكون ، ثم فراغاً بعد فوضى لا عن عدم وجود ، وهو فراغ لأنه لا يوصف لا لأنه هباء . ولكن ، تدريجياً ، راحت نيكس وأخوها ايريب ينفصلان عن السديم الأكبر . ولدى نزول ايريب ، حرر أخته نيكس (إلهة الليل) التي تجوفت فصارت كرة كبيرة في الفلك . ما لبث نصفاها ان انفصلا كما بيضة تنشق نصفين ليخرج منها الصوص . يومها ، فعلاً ، كانت ولادة إيروس (اله الحب) ، واذا بنصفي البيضة يصيران : واحداً قبة الفضاء والآخر

---

(١) اصطلحنا ، في الفصل السابق ، ان نسمي « تيوغونية » الأساطير المتعلقة بنسب الآلهة (المترجم)

اسطوانياً مسطحاً كوّن الأرض . وهكذا ، إكتسبت الأرض والفضاء واقعاً مادياً . وصار الحب قوة طبيعتها روحية ، وصار هو الذي يؤمن تماسك الكون الناشيء . ومن إنحناء الفضاء على الأرض ، وجماعهما ، بدأت السلالات الإلهية .

هذه ، رواية لهذه الأسطورة . لكن لها روايات أخرى . منها كون الأرض خرجت رأساً من الفراغ ، وأنها ، هي نفسها بمساعدة ايروس ، ولدت المولود الثاني للكون : قبة الفضاء . من جهة أخرى ، قيل ان السديم ولد نيكس التي ـ بدورها ـ ولدت أثير ، (إلهة النور المشع ، والنار الأنقى) كما ولدت النهار الذي اضاء المائتين . ولكن ، مهما تكن الرواية ، يبقى ايروس المحرك الأول والعنصر الأساسي للكون في بداياته .

وكان جماع الفضاء خصب التناسل . ومرتين ، ولد منهما ستة أزواج من الجبابرة والجبارات . أما الجبابرة فهم : أوقيانوس ، كويووس ، كريوس ، هيبيريون ، جابِتْ ، كرونوس . وأما الجبارات فهن : تِيا ، رِيا ، تيميس ، منيموسين ، فويبيه ، تيتيس . وهم مخلوقات إلهية ، انما في الوقت نفسه ، هي قوى أولية حافظ بعضها حتى النهاية على طابعه الوحده طبيعي . وأوقيانوس هو الأشهر بينها جميعاً . انه تجسيد المياه التي تغمر العالم ، والعليها تعوم اسطوانة الأرض . ليس هو اذن كياناً « جغرافياً » ، بل قوة كونية ، ومفهومه وُلِدَ حين كانت الأرض تُظن جزيرة مأهولة كبرى ، نابتة في وسط نهر يزنرها . وهذه المياه الأولية ، خُيل أولاً انها وُجدت في الغرب ، في البلاد الحمراء لفتيات المساء ، خلف ما سُمي ، في ما بعد ، أعمدة هرقل . لكنها وُجِدَت عند الاثيوبيين على البحر الاريتري الذي هو حيناً البحر الأحمر ، وحيناً آخر الخليج الفارسي . ووجِدَت كذلك صوب

الشمال ، في منعرجات الايريدان ، وهو خط ماء متعرج ، شمالي بلدان أوروبا ، كان يسير من الشرق إلى الغرب . وحاولت فيه الأجيال اللاحقة أن تجد فيه مجرىً للدانوب ، وآخر للبو ، وآخر للرون ، وآخر للرين . إنما ، قبل هذه التحديدات الجغرافية غير الثابتة ، كان الأوقيانوس موجوداً . أنه المنبع الأولي للمياه ، وهو ابو جميع الأنهار ، تتغذى منه بقنوات تحت الأرض ، أو تتفرع منه طريقة سحرية ، كما النيل الذي يختبئ سره في الرمال الحبشية . وإذ أوقيانوس أول الجبابرة مولداً ، تزوج تيتيس ، صغرى الجبارات ، وهي تجسد القوة النسائية للبحر . من هنا الرمز المزدوج للبحر : فكل خصب مزدوج . ووحدها القوة الأنثى تُنضج وتحمل إلى الكائن بذرة الذكر . وكانت تيتيس تسكن بعيداً ، في الغرب . أحياناً ، كانت تصطدم مع أوقيانوس ، إنما لا يلبثان أن يتصالحا ، وينجو العالم من الغضبة الكبرى ، ومن نزوات النساء .

الى جانب المياه الأولية ، ثمة اللهب الكوكبي . هيبيريون (واسمه يعني : الذي ينحو الى فوق) ، الذي تزوج الاهة تيا وانجب منها ثلاثة أولاد : هيليوس (كوكب الشمس) ، سيلينا (القمر) وإيوس (الفجر) . ثم يختفي هيبريون وتيا من الأسطورة ، بعدما يكونان ركزا الأجيال الإلهية . أما كريوس ، فتزوج امرأة من خارج الجبارات ، ونجده ، لاحقاً ، في ذرية بونتوس . وأما أخوة كويووس ، فتزوج فويبيه الهة النور ، وانجب منها ليتو الذي كان له دور مهم في ذرية الأولمبيين . وكسر جابت تقليد زواج الجبابرة من الجبارات ، فتزوج كليمينيه ، إحدى بنات أوقيانوس وتيتيس ، وكان له أربعة أولاد : أطلس ومينويتيوس وبروميتيه ، وابيميتيه ، هم الذين كوّنوا الوصل بين الآلهة والبشر . والى جابت ، يعود ، في شكل غير مباشر ، خلق البشر المائتين .

بين الجبارات ، تلفت اثنتان : تيميس ومنيموسين . الأولى قوة نظام العالم العظمى : انها القانون ، والتوازن الأبدي . وأختها ، منيموسين ، هي قوة الفكر ، والذاكرة التي تضمن انتصار الفكر على المادة الآنية ، فهي في أساس كل ذكاء . وكلتاهما لم تتزوجا من الجبابرة ، وحُجزتا لزوس وذرية الأولمبيين . وذلك أن الجبابرة قوى فظة بدائية لا مجال معها للروح . ومن اللافت أن القوتين اللتين تكوّن فيهما الفكر ، هما من طبيعة نسائية - ربما لأن الفكر يرفض العنف وكل عمل مباشر ، وربما لأنه ذو نضج بطيء ، وربما ، في بساطة ، لأن لنا في هذه المعتقدات انعكاس حالة إجتماعية معروفة - اذ النساء مؤتمن الأسرار والعلم ، مما لدى القبيلة .

أما الجبابرة ، فأهمهم لسيرورة الكون ، هو كرونوس ، الأصغر ، الذي انجب ذرية الأولمبيين . على أن جماع الفضاء والأرض لم تقتصر ثماره على الجبابرة والجبارات . فبعدهم ولد الصقالبة (والصقلوب عملاق اسطوري بعين واحدة) : أرجيس ، ستيروبيس ، وبرونتيس ، وكانوا ، كما تشير أسماؤهم على التوالي ، ومضة البرق ، وغيم الزوبعة ، وقصف الرعد . بعدهم ولد العمالقة ذوو المئة يد ، وهم كبيرو الجثث ، عنيفون ، ويدعون : كوتوس ، برياريه ، وجييس .

جميع هؤلاء ، كانوا يخافون من أورانوس (الفضاء) الذي لم يكن يسمح لهم برؤية النور ، بل كان يسجنهم في أعماق الأرض . وارادت غايا (الأرض) تحريرهم ، فحاولت الإتفاق معهم ضد أورانوس . لم يقبل بذلك أحد سوى الأصغر بين الجبابرة ، كرونوس ، الذي كان يكره والده . عندها ، اعطته أمه غايا منجلاً فولاذياً قاطعاً ، واذ ، ذات ليلة ، حاول أبوه أورانوس (الفضاء) الإقتراب من زوجته غايا (الأرض) لمضاجعتها ، لم يكد يضمها إليه ، حتى أسرع إليه كرونوس ، وبتر له

بالمنجل خصيتيه ورماهما بعيداً . فسال دم كثير على الأرض ، أخصبها مرة أخرى ، فولّد عمالقة جدد هم الأرينيون والعمالقة والميلياديون ، الـذين ولدوا حوريات الدردار .

وبقي كرونوس وحده حاكماً على كونٍ بدأت تتكّون ملامحـه الأولى . لكنه كان قاسياً ، وحمل في ذاته لعنة جريمته الأبوية . وقبل أن يفكر بتحرير أخوته ، فكر باغراقهم أكثر في الظلمات الجحيمية ، مما أثـار أمـه غايا (الأرض) ضده . وبما أن هذه ، كانت تنبأت له بأن أحد أولاده سيخلعه عن عرشه ، استعجل بافتراس جميع أولاده من زوجته رِيا ، وهم ثلاث بنات : هستيا وديميتيه وهيرا ، وابنان : هادس وبوزييدون . ولكن ، حين كان أصغر أولاده ، زوس الصغير على أهبة الولادة ، أرادت أمه تجنيبه مصير اخوته ، فهربت به سراً . وبالإتفاق مع غايا (الأرض) ، وجدت لها ملجأ في جزيرة كريت ، حيث تحررت . وهناك ، أخذت صخرة قمطتها واعطتها شكل طفل مولود ، وقدمته الى كرونوس الذي خدعه الشكل ، فافترسه ظناً منه أنه ولده ، وهكذا نجا زوس . وتم وحي غايا .

ورعت ريا طفولة الإله الصغـير ، في مغـارة من كريت ، وفي عهـدة الحوريات والكوريّات . وكانـت هذه ، من الشياطـين الشرسـين الـذين اخترعوا استعمال أسلحة البرونز ويمضون وقتهم بالرقص على لعبة السيف والترس . ورأت ريا ان هذه الضجة تخفي استهلالات الرضيع وصراخه فلا يكتشف كرونوس انه خُدِعَ . وشرب الطفل الإلهي من حليب العنزة أمالتيه وأكل من عسل نحلات الـ « ايدا » الذي كانت تفرزه خصيصاً له . وحين ماتت العنزة المرضع احتفظ زوس بجلدها جاعلاً منه درعاً يلوح به في سماء العاصفة .

ولما كبر زوس ، فكر بخلع والده . وتوصل ، بحيلة ، الى تجريع والده مخدراً جعله يعيد أولاده الذين كان افترسهم . واذ عاد زوس والتقى بإخوته ، شنّ حرباً على والده كرونوس ، فانتصر له اخوته الجبابرة ، واستمرت الحرب عشر سنوات ، حتى كشفت غايا لزوس انه لن يربح الحرب إلاّ اذا استعان بالعمالقة الذين أسرهم كرونوس في جوف الأرض . وهكذا ، بمساعدة الصقالبة ، توصل أولاد كرونوس الى خلع والدهم . فإجتمع كرونوس الى الجبابرة ، وكُبِلوا وذهبوا الى حيثما كان أولاد أورانوس (الفضاء) .

هي هذه ، حرب الجبابرة ، التي طردت من الحكم ، الذرية الأولى ، وأحلت مكانها أوائل الأولمبيين .

اللافت أن جوهر الأساطير التيوغونية ، يكمن في سلسلة استبدالات متناوبة ، في جيل أتى من سلفه بالقوة ، ليحكم العالم . ومرتين ، يكون لأصغر الآلهة ، آخر مولود من كل جيل ، ان يغزو الرفعة ويتبوأ ، وهما : كرونوس (آخر سلالة التيتانيين) ، وزوس (آخر سلالة الكرونيديين) .

وفي هذه الظاهرة ، أثر حالة اجتماعية كانت السلطة فيها تؤول الى الأصغر . انما على صعيد التاريخ ، لا شاهد لذلك في أية مدنية يونانية قديمة ، لذا الأرجح ان هذا التقليد الوراثي متأتٍ من مدينة غير يونانية . فالطابع الكوكبي الواضح في أسطورة أورانوس ، والبتر الذي سببه كرونوس لأبيه ، يوحيان ، في هذه الظواهر ، بأصول آسيوية . وثمة أساطير مماثلة نقلتها الينا النصوص الحثية ، في المقاطعة الوسطى من الأناضول ، تروي عن منطقة تمتد من صقلية حتى سورية ، ونحن نعلم أن روابط وثيقة جمعت هذه المناطق في حوض بحر ايجه . اذن فالأساطير

اليونانية البحتة ، لا تبدأ الا مع مجيء زوس ، انما ينتج عن ذلك ان هذه الخلافة المزدوجة ، كما أوردنا ، للأجيال الإلهية لا تمثل ، كما يعتقد البعض ، ذكرى احلال المعتقدات الموروثة ، بديانة طاغية . اذا كان هذا صحيحاً مع زوس المنتصر على كرونوس ، فهو غير صحيح مع كرونوس « قاتل » أورانوس . وبتر أورانوس ، عمل طقسي للأخصاب به « حرر » كرونوس منابع الحياة الكونية ، وحول هذا الطقس ، الحقيقي أو الرمزي ، نمت الأسطورة وترعرعت . أما وصول الأولمبيين الى الحكم ، فمن طريق آخر .

إنّ الألوهات التي حل مكانها زوس وأخوته ، تمثل نظاماً دينياً سابقاً لنزول الغزاة « الآريين » الى اليونان . وهذه الألوهات لم تضمحل ، بل اكملت في الخرافات والأساطير وبقي لها ، في غير موضع ، بعض عبادة ، لكنها تبدو طاقات ثانوية ينفر طابعها الوحشي المتسلّط من الفكر اليوناني . ويحاول الكثيرون ايجاد روابط لذلك مع البحر . قد يكون ذلك ، وقد يكون ابناء أورانوس الثلاثة ، ذوو المائة يد ، نسخة أسطورية للأخطبوطات التي تبرز على الفسيفساءات القديمة لبحر يجه . وثمة أكثر : ألمحنا سابقاً الى اهمية أوقيانوس بين سائر ابناء أورانوس وغايا . حوله ، قامت سلسلة من الأساطير المتشابهة ، تنبئنا عن ابن آخر للأرض ، ولد دون تدخل اي ذكر ، واسمه بونتوس ، الموج البحري . به اتحدت غايا ، وأعطته الخلود الذي منه خرج عدد كبير من الشياطين الثانويين ، كانوا آلهة قبل اليونان الأوائل . وجميع هؤلاء الآلهة ، قريبون من قوى الطبيعة ومظاهرها ، مما لا يوجد لدى الأولمبيين . وجميعهم عمالقة ، مزدوجو الشكل ، كما في الأساطير اليونانية الحديثة

أول وَلَد من بونتوس وغايا ، كان « عجوز البحر » نيريه ، الذي اتحد مع دوريس إحدى بنات أوقيانوس ، وأنجب النيريديات « بنات الموج » . وهرم نيريه ، وكان حكيماً يعرف جميع الأسرار وجميع النبوءات . لكنه كان يأبى إفشاءها ، ويتهرب من ذلك بهربه الى الهيولى التي كان يتمتع بنعمة تحولاتها . وصورة نيريه تذكر بصورة بروتيه (الواردة في « الأوديسيه ») ، وهو شيطان البحر الراكد في المياه المصرية . وهو نفسه ، في الفترة اليونانية الكلاسيكية ، صار خادم بوزييدون ، والمكلف بحراسة قطعان عجول البحر التي يملكها الإله الأكبر .

الإبن الثاني لبونتوس ، هو توماس الذي تزوّج الكترا البنت الثانية لأوقيانوس وأنجب منها عدة بنات : ايريس (رسولة الآلهة وتجسيد قوس قزح) ، والهاربيات : آييلّو وأوسيبيتيه ، اللتان تضاف اليهما ثالثة هي سيلايينو (العتمة)، وانهنّ من عبقريات العاصفة الطائشة. من هنا أن الهاربيات هن مغتصبات ، يملكن جوانح ، ولهن براثن حادة ، ويسكنّ في قلب البحر الايوني في جزر ستروفاد .

الإبن الثالث لبونتوس هو فورسيس الساكن في منطقة سيفالينيا ، على الضفة الغربية لليونان . واليه تعود سلالة « الغريات » وهن نساء البحر العجّز : اينيو وبيفريدو ودينو ، وكن يعشن في الغرب الأقصى ، حيث لم تلتمع شمس قط . وهن كن شقيقات المسخات الثلاث : ستينو ، وأورياليه وميدوز ، وهذه الأخيرة وحدها كانت من المائتات غير الآلهات . وكانت المسخات مرعبات المنظر ، رأسهن محاط بأفاع ، وهن مسلحات بواقيات كما لدى الخنازير البرية ، ايديهن من برونز وأجنحتهن من ذهب . وكانت أعينهن تلتمع ، ليخرج منها تحديق ثاقب اذا أصاب أحداً حوّله الى حجر . ولما كُنّ مخيفات جداً ، نفينَ الى اقاصي الأرض ، في زوايا

العتم ، لا أحد يتجاسر من قربهن . وحده بوزييدون اتحد بميدوز فولد منها بيغاز والحصان إيليه ، وكريزايور الذي صار في ما بعد والد جيريون العملاق ذي الثلاثة الأجساد ، (الذي قتله لاحقاً هيراكليس) ، ووالد الأفعى ايشيدنا ، التي تزوجت ، في ما بعد ، طيفون أبشع الوحوش الذي هدد ، يوماً ، زوس نفسه . وكان من هذا الزواج : أورثروس الكلب الوحشي ، وسيربير كلب الجحيم ، والخيمر (أفعى من تسعة رؤوس) التي كانت عدوة بيليروفون . ومن زواج اورثروس وايشيدنا ولد السفنكس التيبي وأسد نميا . وهكذا ، كان الخيال اليوناني ينسب المحتد الى كائنات الكوابيس التي انتصر عليها هيراكليس .

آخر ما ولد لبونتوس : بنت هي اوريبيه التي تزوجت الجبار المتوحش كريوس ، وكان خلودها نجمياً . أما ابنها البكر آسترايوس ، فتزوج ايوس (الفجر) ، وكان من هذا الزواج : العاصفة ونجمة الصباح وسائر الكواكب . وأما ابنها الثاني بالاس العملاق ، فتزوج ستيكس ولم ينجبا سوى قوى رمزية : الحسد ، النصر ، القوة والعنف . لكن ابنها الثالث تزوج استريا (بنت كويوس وفويبيه) فولدت هيكات ، الالهة الجهنمية ذات الثلاثة الأشكال .

وثمة الجيل قبل الأولمبي - اي جميع الألوهات التي لا تعود مباشرة الى كرونوس ، انما الى التيتانيين وسائر سلالات غايا - وهو يحوي جميع المسوخ التي تعرفها الخرافة والتي ستلعب دوراً في الدورات الآلهية والبطولية ، وكذلك في « القصص » . ويحوي كذلك ، وخاصة ، ألوهات « طبيعية » بحتة : الشمس ، القمر ، الفجر ، الكواكب ، العواصف وعبقريات الظواهر الطبيعية كالزوابع . والى هذا الجيل البدائي ينتسب الصقالبة ، ابناء أورانوس ، الذين يجب تمييزهم عن الصقالبة البنائين الذين هم سكان

أسطوريون من ليقيا أتوا لخدمة ملوك أوغوس واليهم تعود الأبنية الشاهقة التي في ميسان وتيرينت . والصقالبة الأورانيون ، ثلاثة : برونتيس ، ستيروبيس ، وأرغيس ، ولهم علاقة وثيقة بالعاصفة . ولما كان زوس ، هو أيضاً ، إله السماء استخدمهم لكي يصنعوا الصواعق . وثمة تقليد ينسب اليهم إعطاءهم المولود الجديد هذه الأسلحة ، حتى غدوا صانعي الأسلحة الإلهية : (قوس أبولون ، درع أثينا . . .) التي كانوا يضعونها في إدارة هيفايستوس الإله الحداد للجيل الجديد . لكن هذه ، قد تكون تخيلات لاحقة منذ العصور الاسكندرية ، ويقال إن تحركها كان تحت البراكين الصقلية ، ونارها هي التي ، ليلاً ، تضيء قمة سترومبولي وقمة اتنا ، وإنها اصطكاكاتها التي تدوّي في تلك النواحي . على أن الأساطير الأقدم ، تفسر ظاهرة البراكين تفسيراً آخر ، اذ تنسب تحركها الى عمالقة مزروعين تحت الأرض بعد ثورتهم ضد زوس . فبعد انتصار هذا الأخير ، لم تكن غايا راضية ، كما بعد انتصار كرونوس . وهي غضبت من معاملة زوس للتيتانيين أولاده وارادت تحريرهم من سجنهم . فالتجأت الى العمالقة وهم ابناؤها من أورانوس ، ومائتون انما لا يلحقهم الموت الا بضربة من اله يسانده أحد المائتين . وهم كبار الجثة ، قوتهم لا الى قهر ، وجريئون جداً . ولهم شعور ولحى طويلة ، وأفخاذ من ثعابين . مولدهم كان في شبه جزيرة بالينيه . وما كادوا يخرجون من جوف الأرض ، حتى راحوا يستلّون شجراً مشتعلاً ، ويرجمون السماء بحجارة كبيرة ، فتسلح زوس عندها بالصاعقة، وتناولت أثينا المجن وقذفته ، فيما ديونيسوس استل الترس ، وراح كل إله يتسلح بما يستطيعه . واذ كان من الضروري أن يساعد أحد المائتين الآلهة في الصراع ، جيء الى هيراكليس للمساعدة . وكانت مساعدته فردية ، ومعاكسة لكل تسلسل منطقي تاريخي ، اذ مولد

هيراكليس كان سابقاً لمولد البشر ولطوفان دوكاليون ، الذي يحدد نهاية الجيل الأول من المائتين . وهذه المعاكسة تكذب الطابع المصطنع ، الذي قيل عن هيراكليس بفضله انه نموذج البطل الذي استغلته الخرافة السابقة . ومهما يكن ، كان الصراع بين الآلهة والعمالقة . وتدخل هيراكليس بأسهمه التي راحت تصيب العمالقة فيما يصارعهم أحد الآلهة . فتفرق العمالقة ، وانتثرت في العالم كله أشلاء وشظايا . وهكذا انسلاد انسحق تحت جزيرة صقلية حيث حبسته الآلهة أثينا . وكذلك جزيرة نيزيرون المقذوفة من بوزيدون ، سحقت بوليبوتيس . وتنسب الحكايات الشعبية الى هذه الفقرة من الأسطورة ، مجموعة من التفاصيل الأرائية .

وقبل ان يغزو زوس السلطة ، كان عليه ، بعد ، أن يخضع لتجربة قاسية : صراعه مع طيفون ، وحسب الروايات ، كان طيفون ابن هيرا التي أنجبته دون مجامعة ذكر ، او انه كان إبناً آخر للأرض من ترتار . وكان طيفون أكبر من العمالقة ، حتى كان رأسه أحياناً يناطح النجوم . وعوض الأصابع في يديه ، كانت له مئة رأس تنين . ومن الخصر حتى قدميه ، كان جسده محاصراً بالأفاعي . وكانت له أجنحة ، وعيناه ترسلان ألسنة لهب . وحين رأى الآلهة هذا العملاق يناطح السماء ، هربوا الى مصر وتاهوا في الصحراء متخذين أجسام حيوانات . فصار أبولون خطّافاً ، وهرمس أبا منجد (طائر مائي له قائمتان طويلتان ومنقار) ، وآريس سمكة ، وديونيسوس كبشاً ، وهيفايستوس ثوراً ، الخ . . . من هنا تفسير عبادة المصريين للآلهة المرموز إليها بالحيوانات . وهكذا ، بقي زوس وأثينا وحدهما في مواجهة طيفون . والتحم زوس وطيفون جسدين متحاربين ، على تخوم مصر والصحراء العربية البتراء . وانقلب طيفون فوق زوس ، واستل منه المنجل الذي كان في يد الإله ، فقطع له عروق يديه ورجليه ،

وحمله بلا حراك إلى إحدى المغاور في صقلية . ومن جهة أخرى ، وضع عروق زوس في جلد دب وأعطاه إلى تنين . لكن هرمس والاله توصلا إلى سحب هذه العروق وإعادتها إلى مكانها خفية عن طيفون . فاستعاد زوس ، بذلك ، قوته ، وعاد الصراع من جديد طويلاً طويلاً . وتوسع إلى كل أقاصي العالم ، حتى دحر زوس خصمه تحت الـ « أتنا » ، في صقلية ، وتركه عاجزاً .

وكان طيفون آخر خصم لزوس . ولم يكن يخاف ، لتوازن العالم ، من ولدَي بوزييدون اللذين وضعا جبلاً فوق جبل ليصلا الى الأولمب ، وشتما أرتميس وهيرا . وكان كافياً لزوس ان ينفث في صاعقته ، ليحجر عليهما في الجحيم . وصار هو السيد المطلق ، وإله الآلهة . ومن عرفهم العالم في ما بعد من العمالقة ليسوا سوى أحفاد فاسدي الأصل من العمالقة الأول ابناء الأرض . ولم يعودوا يريعون سوى المائتين من البشر ، فأوكل زوس الى هيراكليس أمر ضربهم .

وبقي في الكون تفسير ظاهرة وجود البشر . ولم يُنسب مولدهم إلى سلالة كرونوس ، بل الى سلالة تيتان آخر هو جابت وزوجته كليمينيه إحدى الأوقيانيدات . وولد لجابت أربعة أولاد : أصلس ، مينويتيوس ، بروميتيه ، وايبيميتيه . وكان الأولان عملاقين قويين وبلا قياس . فولد أطلس شياطين كوكبين ، ومنهم الثريات والقلاص . وعاقبته الآلهة ، اذ هو حاربها وشتمها ، بأن يحمل على كتفيه قبة السماء ، حيث هي تنحني نحو الأوقيانوس ، في الغرب الأقصى من العالم . واذ عادت برسيه من قتلها ميدوز ، حولته حجراً بتقديمها اليه وجه مسخ . وصار أطلس هو الجبل الذي يحد الأرض المسكونة في جنوبي اعمدة هرقل ، ويكون أول

الأوقيانوس الكبير .

وبين أبناء جابت الاربعة ، يقال ان بروميتيه هو الذي خلق البشر بواسطة الصلصال . لكن هذا التقليد ليس ثابتاً . وفي « تيوغونيا » هيزيود ، ليس بروميتيه سوى ولي البشر ، وقد يخون زوس لأجلهم . وهو فعل ، مرة أولى ، خلال تضحية علنية ، قدّم خلالها ثوراً على قسمين : أول من جلده ولحمه وأحشائه ، وثانياً من عظامه المجردة من كل لحم ، اي مغلفة بدهنة بيضاء . وقال لزوس ان يختار حصته ، والباقي يتقاسمه البشر . فاختار الدهنة البيضاء ، وفوجىء بالعظام فغضب كثيراً على بروميتيه وعلى البشر . ولكي يعاقب هؤلاء ، رفض ان يرسل اليه النار . فصعد بروميتيه الى السماء واغتصب قطعاً من نار في « عجلة الشمس » ، وحملها الى الأرض في قصبة . وكانت غضبة زوس ، هذه المرة ، عظيمة ، فقيّد بروميتيه على جبل القوقاز بقيود من فولاذ ، وجيء بنسر من مواليد أشيرنا ، يأكل كبده التي كانت تتكون من جديد . واستمر العذاب طويلاً ، حتى اليوم الذي جاء فيها هيراكليس ، وأصاب النسر بسهم قتله ، وتحرر بروميتيه ، ولما كان زوس أقسم بالستيكس أن يبقى بروميتيه مقيداً الى الجبل ، اتفق أن يبقى القسَم سائداً إذا حمل العملاق ، بعد تحرره ، خاتماً من فولاذ ، ترصعه قطعة من صخر . وبقي عقاب البشر بلا حل ، وهو هكذا ، أقسى .

وطلب زوس من هيفايستوس ومن الالهة أتينا ، ان يخلقا كائناً مجهولاً ، يسمه الآلهة كل بصفة . وكانت . . . المرأة ! واذ أغدقوا عليها الصفات والنعوت ، سُميت باندور (اي التي تملك جميع المواهب) . كان لها الجمال والنعمة والحذاقة والإقناع ، لكن هرمس كان وضع في قلبها الكذب

والمراوغة . ويقال ان زوس قدمها هدية الى ابيتيميه ، شقيق بروميتيه الذي نسي نصيحة شقيقه بألاّ يقبل أية هدية من زوس ، فأخذه جمالها وقبلها . وكانت في مكان على الأرض ، جرة تحوي جميع الشرور ، يعيقهـا عن الخروج منها غطاء محكم . فلما وصلت باندور الى الأرض ، حتى اكتشفت الجرة ، وحملها الفضول الشديد على فتحها . وخرجت منها الشرور متفرقة بين البشر . خافت باندور وأعادت الغطاء الى الجرة ، فلم يبق فيها الاّ الأمل في عمقها .

وثمة رواية أخرى تقول ان الجرة ـ وهي هدية العرس من زوس الى باندور ـ كانت تحوي كل الفضائل ، لكن عدم حذرها جعلها تفتحها وتفيض هذه الفضائل على الناس . وفي كلتا الروايتين ، يبقى الأمل التعزية الوحيدة التي مُننت على الناس .

والتقاليد التي لا تعترف لبروميتيه بفضل خلق البشر ، تنسب اليه سلالتهم . فعنها ، ان بروميتيه كان له ولد يسمى دوكاليون ، تزوج من بيرا ابنة ابيميتيه وباندور . وكان على الأرض بشر آخرون ـ لا تفسير لأصلهم ـ وهم « رجال عصر البرونز » الأشرار المؤذون . وقرر زوس ابادتهم فأنزل طوفاناً عظيماً لم ينجُ منه إلاّ دوكاليون وبيرا . وبناء على نصائح بروميتيه ، وضعوا فلكاً عاموا به على سطح المياه ، وظلوا هكذا تسعة أيام وتسع ليال حتى بلغوا جبال تيساليا . وعندما انحسر الطوفان ، خرجا من الفلك ووجدا نفسيهما وحدهما على الأرض القفراء . فأرسل زوس لهما هرمس الذي قدم لهما استكمال وفائهما . فتمنى دوكاليون رفاقاً له ، فأمره زوس بوضع عظام أمه على كتفه . أما بيرا ، من جهتها ، فطلبت كذلك لكنها خافت من هذا الكفر في وضع العظام . لكن

دوكاليون فهم أن المقصود الحجارة ، عظام الأرض التي هي الأم الأزلية . فأطاع زوس ، ومن كل عظمة كان يرميها ، كان يولد رجال ، وتولد نساء من كل عظمة ترميها بيرا . بعدها لجأ دوكاليون وبيرا الى طريق الايلاد الطبيعية ، فكان لهم أولاد هم أجداد مختلف شعوب اليونان . البكر كان هلِن ، الذي ولد دوروس وكزوتوس وايولوس ، وهذان الأول والثالث وهبا اسميهما للسلالتين الدورية والأيولية . وكان لكزوتوس ، بين أولاده ، آكيوس وايون اللذان اعطيا اسميهما للآكيين والأيونيين . وهكذا نشأت الفروع الكبرى للشعب اليوناني ، ونحن الآن على تخوم نشأة الكون ونشأة التاريخ .

من هنا ، ان الأساطير المقابلة للخلق ، لا تشكل كلا متناغماً . فاضافة الى كونها تحوي تغيرات كثيرة ، لا تحوي فعل خلق واحداً ، كما لو ان الفكر اليوناني يرفض كل تفسير كامل . ويفضل ان يبقى أقرب الى تفسيرات متعددة للكون . لذا ، معه ، الاله اليوناني لا يحوي كل الكون فيه . وتبقى القوى الفوطبيعية في دائرة لا تملك هي زمامها ، ولا أمر حازماً لها . ففوق ارادتها ، تحوّم « قوة الأشياء » المسماة احياناً « القدر » ، والتي تتصرف بنوايا البشر وتصرفاتهم . وما إلاّ ، في ما بعد ، على زمن الفلاسفة ، حتى يقال عن عملية خلق واعية ومقصودة ، وفق تصميم منطقي ، انما عندها ، يخرج الكلام على إطار الأسطورة .

وحول خلق الإنسان ، كذلك يلاحظ ان في هذه النظرية بعض الغموض . فثمة أساطير تفسر خلق فرد معين من عنصر معين ، انما تفترض وجود رجال آخرين قبله ، كما ـ حتى على صعيد الأسطورة ـ لو ان الفكر اليوناني لم يستطع رفض الموازنة بين جميع الناس . وثمة خلق تيسالي

تختصره أسطورة دوكاليون وبيرا . كما ثمة خلق آرجي يفترض « إنساناً أول » اسمه فورونيه ، ابن النهر ايناكوس والحورية ميليا . ومن فورونيه هذا ، خرجت سلالة أبرزها أرغوس الذي وهب اسمه للبلد الآرجي ، وأبرزها ايضاً بيلاسغوس الذي وهب اسمه للبيلاجيين ، وآكايوس (وهو غير ابن كزوثوس) وميسينيه (واهب اسمه لميسنيا) وفتيوس واهب اسمه للبلد فتيوتيديا (في تيساليا) .

وأكثر من عملية نشأة الكون ، تقدم لنا التقاليد المحلية سلالات متعددة تبرز فيها تدريجياً السلالة البشرية تنبثق من سلالة الحوريات والأنهار ، هي الأرواح الأنثوية ساكنة الأشجار . فليس بين الآلهة والبشر الحل الحقيقي للإستمرار الذي تفترضه عملية خلق مسبقة . والى حد معين ، يمكن القول إن اليونان يرون البشري « إلهياً سقط » ، مما يفسر أن الأسطورة غالباً يمكنها تقديم المعطيات المعاكسة لترينا البشر مقتحمين ، بقواهم الشخصية ، حرم الآلهة .

وثمة ، أخيراً ، أسطورة بروميتيه ، افضل تمثيل للأسطورة ذات الخلق ، وهي التي تشدد على كون البشر خلقوا على هامش ارادة زوس . ودون أن يكون بينه وبين البشر أي عداء ، ليس الإله ، هنا ، « أباً للبشر» . بل هو سيّد يلتقي البشريين في مملكته ويستفيد من وجودهم . من هنا حاجة زوس للبشر الذين ، في نظر الأولمبيين ، هم فرع أساسي ، وينعمون ، على الصعيد الكوني ، بنوع من الأخوة الأساسية مع الآلهة . وجميعهم يخضعون وهو هنا ، الفرق الطارىء بين الظرف والملك ، لكنه فرق ، بطبيعته ، غير شديد الإنفصال .

الفصل الثالث

عصر الأولمبيين

الثورة السماوية التي أشعلها زوس ، حملت الى الحكم سلالة الكرونيديين ، ابناء كرونوس وبينهم السيد الجديد (زوس) وهو آخر من ولد . ففي البدء ولدت ثلاث : هستيا ، ديميتير ، وهيرا ، ثم ولد ثلاثة : هادس ، بوزيدون وزوس . وتوزع الكرونيديون في الحكم كما أسلافهم التيتانيون أبناء أورانوس . وكان لكل منهم صفته وميدانه كما حددهما له القدر . وكذا الحال مع الآلهات الثلاث : فهذه هستيا تولت المنزل : تجمدت في الأولمب كما المرأة في منزل بعلها ومنحها زوس بكارة ابدية . وأختها ديميتير تولت الأرض المزروعة ، دون اتحادها مع غايا ، الأم الأولى التي تحوي أيضاً الجبال والصحاري . وديميتير ، وهي أيضاً أم خصبة ، متحدة خصوصاً بأساطير القمح ، وأماكن عبادتها : المراعي الخصبة حيث تنبت السنابل . اما هيرا ، فلها ألوهة الزواج . انها زوجة زوس ، وكل عام تقام لها ذكرى زواجها من الإله . ويكون تزيين تمثال الإلهة بوشاح المخطوبة ، ويصار الى تجوالها عبر المدن ، وصولاً الى معبد مهيأ فيه المخدع الزوجي . وبهذا ، كانت تتجدد القوة الفاعلة لدى الزوجين ، ومن خلالها ، القوة الفاعلة في كل الطبيعة .

صفات أبناء كرونوس الثلاثة : هادس وبوزيدون وزوس ، لم تكن ملكاً لهم ، إنما اعطيتِ لهم بالقرعة . فبعد انتصارهم على التيتانيين ، توزع الأخوة الثلاثة ميادين العالم الثلاثة : زوس السماء ، بوزيدون البحر ، وهادس ما تحت الأرض ومملكة الموتى . ولكن ، ابان الصراع مع التيتانيين ، أخذ كل واحد منهم سلاحاً من الصقالبة ، موازياً لمهماته اللاحقة : فأخذ زوس الصاعقة ، وهادس قبعة سحرية تعمد الى إخفاء من يلبسها (رمز الموت يقال لها اليوم : قبعة الإخفاء) ، وأخذ بوزيدون مذراة (شوكة) ثلاثية شبيهة بمذراة صيادين التن ، كانت تساعده على زعزعة الأرض والمراكب . وفي أواسط العهد ، مزج لقصة طموح تاريخي ، ونوع من الوصف معاكس لتسلسل الوقائع التاريخية ، كما ، مثلاً ، كان تدخل هيراكليس في زمن سابق لمولده .

وإلى الستة الأولمبيين الأول من أولاد كرونوس ، أتت ألوهات أخرى ، كونت معهم « مجلس » كبار الآلهة . أكثرهم كان من أبناء زوس وبناته ، مما جعل لهذا الأخير اسم « أبي الآلهة » . وعن التقاليد المتأخرة ـ المولودة خاصة في روما تحت التأثير الأتروري ـ ان ثمة ١٢ إلهاً كبيراً (مساوين عدد الـ ١٢ تيتاناً) ، كلهم تغيروا أسماءً وملامح ، مع الزمن . والآلهة الذين من زوس ، والذين يؤلفون ، في العهد الكلاسيكي ، الجيل الثاني من الأولمبيين ، هم : أفروديت ، ابولون ، ارتيميس ، هيفايستوس ، أثينا ، آريس ، هرمس ، وديونيسوس . مما يكوّن ، مع الستة الكرونيديين ، مجموع ١٤ إلهاً ، بينهم ديونيسوس الذي يجهله هومير ، لأنه حديث العهد في الأولمب ، رغم ان اسمه يعود الى الميسينيين . على ان لجهل هومير اسم ديونيسوس ، سبباً آخر . ومهما

يكن ، للحصول على مجموع ١٢ ، يجب إقصاء هادس وبـوزيدون لأن ميدانهما ليس علوياً .

مع هذا ، ثمة آلهة آخرون خارج اللائحة « الرسمية » . وهـذه ، نستثني منها برسيفون ابنة ديميتير وزوس ، انما زوجـة هادس ، الـذي يحبسها معه في الجحيم . وكذلك نستثني امفيتـريت ، زوجـة بوزيدون وابنة نيريه ودوريس ، وكذلك بعض ابناء زوس الإلهيين : هيبيا (رمز صبا الآلهة) ، ايليتيا (شيطانـة النســل) ، الأيام (القــوى المسيطــرة على الفصول) ، الملهمات (وعنهن يصور كل نشاط للفكر والروح) ، النِعَم (التي تسهر كل عام على تجديد النبت ، وهي تجسد فرح العالم) . وهؤلاء الآلهة يحيطون فقط بالآلهة الكبار ، وهم حاشيتهم في مواكبهم ، كل التوابع والخدم ، إنما لا يشتركون في محرماتهم .

وهكذا ، نجد أن صفـات الأولمبيين الجـدد ليســت أقـل تحـديداً من أسلافهم . فهذا ابولون يتولى التأليه وشفاء المرضى ، والموسيقى ، ويقود جوقة الملهمات ويعزف على قيثارة ذهبية . ومن خلال هذه المهمات ، تبان قوة الأناشيد السحرية ، وربما هنا مبـدأ شخصيتـه المتعـددة الجوانـب . فأحياناً ، هو اله الشمس ، استناداً الى بعض صفاته ومهماته ، لكن هذه الصفة ليست أساسية فيه . صحيح انه ، من حيث أمه ليتو ، ينتسب الى التيتانيين النجميين ، الى كويوس وفويبيه ، لكن الشمس (هليوس) ، شيطان مميز في داخل الميتولوجيا . وهو يملك أساطيره الخاصة ولـه دمغـة التيتانيين اذ هو معتبر إبناً لهيبريون . وهذه التسمية لا يمكن أن تنطبق على أبولون ، لأنه في الأساس أولمبي وطبيعته متعددة . ومنذ وضعته أمه ، في جزيرة ديلوس ، قامت بجعات مقدسة بالتحليق سبع مرات فوق الجزيرة

اذ كان ذلك ، اليوم السابع من الشهر . ثم حملته البجعات الى منطقتها ، على ضفاف الأوقيانوس ، صوب الشمال (لدى شعوب البلدان الشمالية القصوى) حيث السكان يعيشون تحت سماء نقية . وهناك ، بقي عاماً كاملاً ، يحظى بتكريم السكان ، حتى ، في أواخر الصيف ، عاد الى اليونان التي استقبلته بالغناء والأعياد . وكل عام ، كانت تقام في دلف ذكرى مجيء الإله . والحقيقة ان ابولون ، لدى مجيئه ، استقر في دلف . وعند وصوله ، اضطر الى قتل تنين يدعى بيتون ، كان يحرس ، في الجبل ، معبداً قديماً لتيميس ، وكان ينصرف الى اللهو والتبذير والتخريب في المدينة . وتذكاراً لقتله هذا التنين ، أقام ابولون اعياداً سماها « الأعياد البيثية » (نسبة الى التنين بيثون وصارت تقام كل أربع سنوات في دلف) . وفي استيلائه على معبد تيميس ، سماه بإسمه ، وخصص فيه قاعدة ثلاثية لتجلس عليه العرافة التي كلفها بإيصال ردوده الى البشر .

وكان ابولون أجمل الآلهة ، وابهاهم ، فعرف غير مغامرة حب ، لم تكن في أكثرها من الطرفين . فهذه ، مثلاً ، الحورية « دافنيه » ابنة إله نهر بينيه ، في تيساليا ، لم تقاسمه حبه . هربت الى الجبال فلاحقها فتمنت من ابيها أن يمنحها الهيولى فتحولت الى شجرة غار صارت شجرة ابولون المفضلة . وكذلك كورونيس التي حبلت منه بالطفل اسكليبيوس ، لكنها ، وهي عشيقته ، خانته مع أحد المائتين واسمه ايسكيس . لكن ابولون ارداها بسهم وسحب من أحشائها الجنين قبل اضطرام النار في محرقة المأتم .

ومع كاساندر ، ابنة بريام ، لم يكن ابولون أكثر سعادة . ولكي يغويها ، تبرع بأن يعلمها الألوهة . قبلت كاساندر ، ولما تعلمت ، لم

ترض الرضوخ لرغبات أبولون الذي ، انتقاماً ، بصق في فمها فأفقدها كل ما كانت تعلمت ، وأفقدها موهبة الإقناع . وصارت كاساندر عبثاً تحاول رواية التنبؤات : فلم يعد أحد يصدقها .

ولم يقصر ابولون عشقه على النساء ، بل أحب الذكور . وأبرز هؤلاء ، هياسنتوس وسيباريسوس ، فجاءت الهيولى (الأول صار زنبقة والثاني سروة) وحرمته منهما فحزن كثيراً . وخلف هاتين الأسطورتين ، تختلط ذكريات كثيرة سابقة لمجيء الهيلينيين ، وقد تكون ايجيه (من بحر ايجيه) امتصتها أخبار أبولون .

ويروى عن أبولون أيضاً مروره بتجربتين ، إضطر معهما الى الخضوع للبشر: الأولى عقب مؤامرة حاكها مع بوزييدون وهيرا وأثينا، وتقوم على ايثاق زوس في قيود حديدية وتعليقه في الفضاء . وفشلت المؤامرة ، فكان عقاب ابولون وبوزييدون ان يعملا في خدمة لاوميدون ملك طروادة ، فيعمرا جسور المدينة . ولدى انتهائهما طالبا الملك بأجرتهما ، فرفض وهددهما بقطع آذانهما وبيعهما عبيداً .

والتجربة الثانية كانت في ارغامه على خدمة الملك « أدميت » في فير (تيساليا) . وهو عقاب فرضه عليه زوس ، لأن ابولون كان اردى بسهامه ، الصقالبة الكانوا حملوا الصاعقة الى زوس الذي بها قتل اسكليبيوس ابن ابولون لأنه قام من بين الأموات . فبات ابولون طوال عام كامل لدى الملك « أدميت » يرعى مواشيه التي نمت في رعايته أعجوبياً ، وصارت توائم مما أفرح الملك كثيراً .

أما ارتميس ، شقيقة ابولون ، فهي أخته التوأم ونسخة مطابقة له . ومثله تحمل قوساً ترمي بسهامه النساء ـ وخاصة اللواتي على اهبة التوليد ـ

فتقتلهن . وبقيت عذراء ، تمضي وقتها في الصيد مجتازة الجبال تصحبها كلابها . وكما ابولون يحمل صفات اله شمسي ، كذلك كانت نسبة ارتمس صاحبة القوة الهائلة التي تسيطر على الأخصاب الحيواني في الغابات ، لذا نجد فيها ملامح من إلهة كريت . من هنا يتم الاستنجاد بها عند كل عملية توليد ، وتؤمن بها جميع الأمهات . ويقال ان قدرة العذراء ارتميس ، موجودة فيها منذ ولادتها . فأمها ليتو ، أحبها زوس ، وكانت على وشك ان تضع منه توأمين إلهين حين عرفت هيرا زوجة زوس والحسودة الكبرى من ليتو الجميلة ، فمنعت جميع أماكن الأرض من ان تتسع لها موضعاً لاحتواء آلامها وتوأميها . وراحت ليتو تهيم في البلدان ، وكل بلد يرفض أن تلد فيه ، وآلام المخاض تزداد . الى ان كانت جزيرة ديلوس - وهي أيضاً جزيرة هائمة وعاقر وفقيرة - فاستقبلت ليتو التي وضعت توأميها على جذع النخلة الوحيدة في كل الجزيرة . وكانت أرتميس ، التي خرجت أولاً من أحشائها ، وراحت تساعد أمها على انقاذها في وضع ابولون ، ثاني التوأمين .

هيفايستوس كان يأمر النار . لم يكن هو النار ، بل سيد مصاهر الحديد . ويروى حيناً انه ابن زوس ، وحيناً آخر انه ابن هيرا التي وضعته دون مساس من ذكر ، انتقاماً من زوس الذي وضع اثينا من رأسه ، دون مجامعته انثى . وخرج هيفايستوس شيطاناً أعرج . تدلنا « الإلياذة » على ذلك . واذ كانت هيرا تصطدم مع زوس في موضوع هيراكليس ، اتخذ هيفايستوس جانب أمه . فأخذه زوس من رجله ورماه من أعلى الأولمب فبقي يوماً كاملاً يهبط من فوق ، حتى وصل عند المساء الى الأرض في جزيرة لمنوس التي خبط عليها منهكاً . ولما هو من البشر ، لم يمت لكنه أصيب

بخلع في رجله فصار أعرج . وتظهره لنا الأسطورة على انه حِرَفي إلهي مهيأ دائماً لتنفيذ أي عمل ، في مساعدة الصقالبة الحدادين ، كما الجواهر والأسلحة ، لسائر الآلهة . لكن الفترة الأهم من عهده ، هي مغامرته الفاشلة في زواجه من أفروديت . فإنه ، وهو الملعون جسدياً ، عرف نساءً رائعات الجمال والجسد . ويُنسَب إليه زواجه من غير واحدة ، كما شاريس (النعمة) وآغريبه الصبية . لكن زوس زوّجه من أفروديت ، أجملهن على الإطلاق . لكنها لم تلبث أن عشقت آريس ، وفاجأتهما الشمس يوماً متعانقين ، فراحت وأخبرت الزوج الذي لم يقل شيئاً ، انما راح فحاك شبكة خفية حول سرير زوجته حيث كانت تخونه . وذات يوم في الموعد المناسب ، انطبقت الشبكة عليهما معاً فجمدتهما عن كل حركة . عندها ، دعا هيفايستوس جميع الآلهة ليشهدوا . ولدى تحريرها ، هربت أفروديت خجلاً وسخر منها كل الآلهة .

وأفروديت هذه ، الرفيقة الخائنة ، تقال غالباً ابنة زوس وديونيه احدى قدامى الآلهات . وتقال أحياناً ابنة اورانس . ويقال انها ولدت حين سال دم الإله على البحر عند بتر عضوه . وهكذا ولدت أفروديت من الأمواج ، وهي صفة ينسبها اليها جميع الشعراء . وما خرجت من الزبد البحري ، حتى حملها النسيم الى سيتير ثم الى ضفاف قبرص وهي ضواحي شاعريتها المفضلة ، حيث عرف لها ، في الفترة التاريخية الطويلة ، معابد شهيرة . وهناك ، استقبلتها الفصول التي ألبستها وزينتها وحملتها عند البشر .

في أساطير أفروديت عناصر مختلفة كثيرة . انها تبدو ، في أساسها ، قوة هائلة لا ترد ، تخُضع الكون كله لأوامرها . وهي شيطانة الأخصاب الأنثوي ، ومن هنا اخصاب الطبيعة كلها . وأشهر أساطيرها ، مغامراتها

العاطفية مع أدونيس الأشهر ، الذي ترك لهذه الألهة عبادات كثيرة .

ويروى ، حول هذا ، أن كانت لملك سورية ، تياس ، ابنة اسمها ميرا ـ أو سْميرنا ـ جعلتها غضبة أفروديت تشتهي ارتكاب عمل محرم مع أبيها . فكان لها ، بمساعدة مرضعها ، أن تخدع تِياس ، وتضاجعه طوال اثنتي عشرة ليلة . انما ، في الليلة الأخيرة ، إكتشف تياس جريمته ولحق بابنته ليقتلها . فإستنجدت سْميرنا بالآلهة ، الذين ، لإنقاذها ، حوّلوها شجرة سميث « شجرة الصبر » (مير نسبة الى اسم الصبية ميرا) . وبعد عشرة أشهر ، وقعت القشرة عن الشجرة ، وخرج منها ولد سمي أدونيس . ولشدة دهشتها من جمال ولدها ، احتضنته وسلمته الى برسيفون لتربيه سراً ، في ظل الجحيم . لكن ملكة الموتى أخذت بجمال أدونيس فلم تشأ اعادته الى أفروديت . وكان زوس شاهداً على الصراع ، فقرر ان يعيش أدونيس ثلث السنة مع افروديت ، والثلث الثاني مع بيرسيفون ، والثلث الثالث مع من يختارها هو . لكن ادونيس امضى ثلثي السنة مع أفروديت ، وثلثاً واحداً في مملكة الموتى . وظل هكذا بعض الوقت ، حتى كان من آريس ، (عشيق أفروديث) ، أن أثار ـ حسداً ـ خنزيراً برياً ضدّ الشاب الوسيم ، فضربه ضربة أرداه بها من تأثير جراحه . ومن دم ادونيس الجريح ، ولدت الشقائق الحمراء في الحقول ، واحياء لذكرى حبيبها ، اسست أفروديت عيداً مأتمياً كل عام ، تشترك فيه نساء سورية . فكن يزرعن ، في أحواض ، حبوباً يسقينها بماء ساخنة لتنبت في سرعة . وكن يسمينها « حديقة أدونيس » . ولم يكن طويلاً عمر تلك النبتات المضغوطة على الحياة ، فكانت تذبل وتموت ، فتقيم النسوة مناحة على ذبولها تذكاراً لحبيب أفروديت . وفي الوقت نفسه ، كان نهر أدونيس الجاري في

بيبلوس ، يحمر كما لو انه مخضّب بدم بطله .

وواضحة هنا بصمات الجذور السامية لهذه الأسطورة : فاسم أدونيس ، قريب من الجذر السامي الذي يعني « السيد » . والمكان الذي جرت فيه ، يدل على أن أفروديت مدينة ، بأكثر أطباعها ، للإلهة السورية . [1] .

وتدريجياً ، لم يعد لافروديت من طابع سوى الحب ، وغابت عنها صلاتها بالأخصاب وقوتها الأولى . وهي أحبت كذلك آنشيز ، (قريباً من «ايدا ») ، موهمة اياه انها بشرية ، وابنة ملك فريجيا ، وأن هرمس حملها الى هناك وتركها في الغابة و . . . رحل ! وانجبت أفروديت منه ولداً دعي اينيه ، وأرغمته على القسم بألاّ يبوح بسر هذا الحب الكبير بينهما .

ومن العلاقة الرجيمة بين أفروديت وآريس ، ولد اثنان هما ايروس (الحب) ، وانتيروس (الحب المتبادل) ، اللذان راح الفنانون في العهد الاسكندري يتفننون في إظهارهما ضمن أشكال طفولية ، هي جذور مباشرة لصور الملائكة اليوم . وقام الفن في بومباي فنقل مشاهدهما الى الفن الشعبي : الحب المعاقب ، الحب المغدور ، وفيها يبدو ايروس ولداً خبيثاً أو حروداً أو تعيساً حدّ أمه أفروديت . من هنا نسيان صورة ايروس القديمة التي منذ نشأة الكون ، لم تعد صورته وصورة أمه إلا زخرفاً صالونياً .

مع أن الأسطورة تحفظ لأفروديت صورة مرعبة . فلعناتها رهيبة . وهي التي أوحت الى ايوس (الفجر) بحب عظيم تجاه أوريون ، عقاباً لها انها

(١) ألفت الى أن المقصود ، هنا ، أرض لبنان ، التي تحوي مدينة بيبلوس (جبيل) ونهر أدونيس . (المترجم) .

استسلمت لآريس . وعاقبت كره نساء ليمنوس لها ، بمسحهنّ برائحة عفنة لاتطاق جعلت أزواجهن يتركونهن . وكذلك عاقبت أفروديت صبايا سينيراس ، في باتوس ، بمنحهن رغبة مضاجعة الغرباء . لكن قوّتها ظهرت عظيمة في اثناء حرب طروادة . فيوماً ، رمت إلهة الفتنة ، وسط الآلهة ، تفاحة مرصودة لأجمل الآلهات . أحرزت التفاحة ثلاثة منهن . فأمر زوس أن يأخذ هرمس الصبايا الثلاث أفروديت وهيرا وأثينا ، إلى « ايدا » ، ليحاكمهن فيها الوسيم « باريس » ابن بريام . وقفن أمامه ، وأقمن جدلاً وعدن في آخره بتقديم هدايا . فوعدت هيرا القاضي بالمملكة الخالدة ، ووعدت اثينا بجعله أقوى من جميع أعدائه في الحرب . أما أفروديت فاكتفت باهدائه يد هيلين ، أجمل بنات البشر . وحكم « باريس » لصالح أفروديت ، وكان ذلك سبباً في الحرب بين اليونان والطرواديين . وخلال المعارك ، تدخلت الإلهة لصالح الطرواديين وخلصت باريس من المعركة ، وحمت اينيه الكان يهاجمه ديوميد ، وكان نصيبها جرحاً بالغاً .

وثمة تضاد قوي بين اثينا وأفروديت . فزوس ، في الفترة الأولى من حكمه ، كان تزوج ميتيس الأوقيانية وجعلها حبلى . فقال أورانوس وغايا لزوس انها إن انجبت بنتاً ، فسوف تلد بعده صبياً يحكم العالم . هكذا تشاء الأقدار . وبدون تردد ، بلغ زوس ميتيس انقاذاً لمركزه . وحين حان أوان الولادة ، أمر هيفايستوس بضربها على رأسها بفأس . وعندها ، خرجت من جمجمتها صبية مسلحة ، كانت الإلهة أتينا . أما تلك الولادة ، فكانت على ضفاف بحيرة تريتونيس في ليبيا .

خرجت أتينا إلهة محاربة ، وتروى عن عهدها أخبار كثيرة . وهي قامت بدور مهم جداً في الحرب ضد العمالقة ، فقتلت بالاس وقشرته وصنعت من جلده درعاً . أما رموزها فثلاثة : الدرع ، الحربة ، والمجنّ . وكانت

تحمل على درعها رأس ميدوز الذي أعطاها اياه بيرسيه وكان يتحول حجراً كل من ينظر إليه . لكن أثينا ، بتضادّ عجيب ، هي أيضاً إلهة السلام . وهي تحمي الغازلات والحائكات ، واذا هي اخترعت عربة الحرب ، فانها ، في المقابل ، زرعت في اليونان زيتوناً ، وعلّمت الاتيكيين (الاثينيين) استخراج الزيت من حبوبه . وهي ، في صورة عامة ، تتدخل في غير أسطورة ، كما في الفكر وفي المنطق ، وهما يمنحان قوتهما للشجاعة . وهي التي سلّحت هيراكليس وساندته في اللحظات الصعبة . وأخيراً ، هي التي أمّنت لهيراكليس الخلود في جعله لا يموت . وفي « الأوديسيه » ، نجدها دائماً تساند أوليس ، وتوحي إليه بالقرارات الحذرة والحكيمة .

لكن أثينا بقيت عذراء . وثمة أسطورة أتيكية تقول انها ولدت ابناً في حالات خاصة تم تلخيصها كما الآتي : ذات يوم ، وكانت ذهبت لتزور هيفايستوس في مسبكه، تطلب منه سلاحاً، وقع الاله ـ وكانت أفروديت تركته ـ في هوى أثينا. وباح لها به، لكنها لم تشأ الإستماع إليه، فهربت، لحق بها هيفايستوس. ورغم كونه أعرج، بلغها فشدها من يدها وعانقها وبلل بشهوته ساقي الإلهة التي كانت تصدّه . ومن قرفها ، مسحت أثينا سائل الإله المخصب بنديفة من صوف ورمتها أرضاً . لكن السائل المنوي الإلهي أخصب الأرض فولد منها ولد سمّي ايريكتونيوس (وهو ، جمع لكلمتي صوف وأرض) ، فاعتبرته الإلهة ابنها . وقررت اعالته ، ورغم الإلهات ، صممت على جعله خالداً لا يموت . ووضعته في صندوق جعلته في حراسة باندروسوس إحدى بنات الملك سيكروبس . لكن اغلوروس ، شقيقة باندروسوس ، لم تستطع ، رغم أوامر أثينا ، ان تحرم نفسها من النظر في الصندوق ، فرأت الولد نائماً تلتف حوله حية

رهيبة . واذ بالصبيتين ، لخوفهما ولعنة أفروديت عليهما ، يهبطان من فوق صخور الأكروبول في أثينا . وفي ما بعد ، استولى اريكتونيوس على حكم بلاد الاتيك ، ومنه خرجت سلالة ملوك أثينا . إذن ، تبدو أثينا على الأخص إلهة مدينة الاثينيين وانها بهذه الصفة ، تحمل مبدأ وحدتها ومبدأ عهدها الأسطوري . ففيها تكمن روح المدينة التي تحمي ، كما تثبت ذلك المعتقدات القديمة ذات الصفات السحرية التي بقيت طوال العهود القديمة . ويروى انها في طفولتها ، نشأت في سيرانايك ، على ضفاف بحيرة تريتونيس ، حيث وُلدت ، ومنحها زوس ، رفيقة لألعابها ، ابنة الإله تريتون ، حارس البحيرة . لكن هذه البنت الصغيرة ، قُتلت خطأ على يد أثينا . وإقراراً منها بالذنب ، أقامت لها تمثالاً ركزته حدّ زوس ، وراحت ترفع له التعظيم كما الآلهة . وسمي هذا التمثال « بالاديون » ، وبقي زمناً في الأولمب ثم هبط الى الأرض على قمة تر واد المسماة « قمة آتيه » (أو قمة الخطأ) . وصادف ذلك في حين كان ليلوس (جد الطرواديين) يؤسس مدينة طروادة . ودخل التمثال الى معبد أثينا ولم يكن جاهزاً بعد ، فتمركز في مكان اقامة الشعائر . واذ أعتبر تمثالاً عجائبياً ، راح يُعبد في شعائر خاصة ، حتى اعتبر حامي المدينة فلا تقهر طالما هو فيها . وفي ما بعد ، إثر غير مغامرة ، أخذ التمثال الى روما ، وحُفظ في كنيسة فيستا المقدسة . وهناك أيضاً ، اعتبر الرومان الكنيسة مصانة ، طالما ان التمثال فيها .

أما هرمس ، فهو أخو اثينا الأوسط ، وابن زوس من مايا أصغر بنات الثريا . ولد في أركاديا ، داخل مغارة على تلة سيلين . ولدى ولادته ، أحيط بعصيبات ، كالعادة مع المواليد الجدد ، ووضع في عربة لها شكل سرير . لكن الوليد ، لشدة حراكه ، تمكن من فك رباطه ، وذهب وحده

الى تيساليا حيث كان أخوه أبولون يرعى ماشية أدميت . وعلى غفلة من أبولون ، خطف هرمس ١٢ بقرة و١٠٠ عجل وثوراً ، وعلق في ذنب آخرها غضاً مورقاً ليمحو آثارها على التراب وقادها الى بيلوس في ميسينيا ، حيث ضحى بعجلين وقطعهما ١٢ شريحة . وحين أخفى غنيمته في مكان سري ، عاد الى مغارته الأم . ولدى دخوله ، شاهد سلحفاة ، فأخذها وفرغها ، وراح يشد الى فجوتها حبالاً من أمعاء غنائمه . وهكذا ، ولدت القيثارة .

وراح أبولون يبحث عن ماشيته الضائعة ، فعرف مكانها بقدرته الإلهية . وقصد الى قمة سيلين متهماً بذلك مايا . لكن هذه ، تبرئة للتهمة ، كشفت عن الطفل المقمط . فركض أبولون يستنجد بزوس الذي أمر هرمس بإعادة الحيوانات المسروقة . لكن ابولون اذ رأى القيثارة في مغارة سيلين ، أقام تبادلاً شرائياً مع هرمس ، فترك له القطيع آخذاً له القيثارة .

بُعَيد ذلك ، اخترع هرمس المصفار (من قصبة بان) ، وباع اختراعه هذا من ابولون مقابل عصا ذهبية . ثم تعلم من أخيه الفن الإلهي . وهذه الأساطير من طفولته ، توضح الطابع الطقسي لدى الإله : فالعصا الذهبية هي العصا السحرية التي يحمل بها النوم الى عيون البشر ، وهي استخدمها لقتل ارغوس ذي المئة عين ، حارس ايو الذي اقترحته هيرا وهو لم يكن يطيع زوس . وإذ كان هرمس رسول الآلهة ، كان ينتعل صندلاً ذا أجنحة تحمله الى البعيد . وكان من أهم ادواره مرافقة أرواح الموتى الى الجحيم . وكانت صورته على مفترقات الطرقات والشوارع ، بشكل عمود كبير . فهو رفيق السياح ودليلهم ، وهو يحمي الرعاة ، وغالباً مايُصور في التماثيل حاملاً نعجة على كتفيه ، كما « الراعي الصالح » .

لكن شهرة هرمس ، خاصة ، في حِيَله . وعنه أخذ ابنه اوتـوليكوس (الجدّ الأول لأوليس) حذاقـة التحليق . من هنـا ان هرمس ، السائـح الموهوب في استملاك ارزاق الغير ، بات اله التجارة .

آريس ، هو ابن زوس من هيرا وهو اله الحرب المشبع بالدم والمذابح ، ويبدو دائماً مدرّعاً متمنطقا بمجـن وسهـم وسيف . حولـه ، دائماً أربعـة شياطين فرسان ، وهـم ديمـوس (الخـوف) وفوبوس(الرعـب) واريس (الفتنة) واينيو (شيطانة الحرب) . وليست الأساطير حول آريس كثيرة ، فأبرزها عبادته في تيبا حيث له نبع يحرسه تنين كان ابنه . وحين قدموس ، الآتي إلى اليونان من سورية ، أراد غب الماء من هذا النبع لإقامة تضحيته ، حاول التنين صده . فقتله قدموس ، إنما كان له ، عقاباً ، أن يخدم آريس سبع سنوات . ولدى انتهاء مدة عقابه ، زوجـه الآلهـة من هرمـونيا ابنـة آريس . ومن هذا الزواج ، كانت سلالة العائلة الملكية في تيبا .

وكان يحلو لليونان تصوير آريس مهزوماً ، أمام ذكاء هيراكليس وحكمة أثينا . لذا ، أمام شعب طروادة ، جعلت الإلهة ان يجرحه ديوميد . ولما هيراكليس هاجم سيكنوس إبن آريس ، اراد هذا الآخـير أن يتدخـل بطلاً ، فجُرِح في ساقه وانسحب من المعركة .

وكان في أثينا مكان يحمل اسمه : قمة آريس ، على سفحها يجري نبع . وفي هذا المكان كان يوماً لآريس أن يبصر هاليروتيوس ابـن بوزييدون ، يحاول اغتصاب اليسيبه ، ابنة آريس من أغلوروس . فهب ، دفاعاً عن ابنته ، وقتل هاليروتيوس . فاستجلبه بوزييدون الى محكمة التأمت من كبار الأولمبيين ، على تلك التلة نفسها . وبـرِيء آريس ، انمـا ، للـذكرى ، أعطي اسم آريوباج لتلك التلة ، حيث راحت تجتمع في ما بعد ، المحكمة

الناظرة في الأمور الدينية .

أما ديميتيه ، أخت زوس ، وابنة كرونوس وريا ، فأسطورتها من الأجمل والأطرف ، بين الأساطير الهيلينية القديمة ، حولها ، يروى ان زوس ضاجعها فحبلت منه وولدت بنتاً اسمها برسيفون . كبرت سعيدة بين الحوريات مع سائر بنات زوس . يوماً ، كانت تقطف زهراً من حقل إينا في صقلية ، حيث يُزرع القمح . وإذ كانت الصبية تنحني لتقطف نرجسة ، انشقت الأرض وخرج منها إله على مركبة يقودها ، عوض الأربعة جياد ، أربعة تنانين . كان ذاك ، هادس أخو زوس ، الكان عاشق برسيفون ، والذي استطاع بحيلة مساعدة من أخيه ، خطفها الى الجحيم لكنها ، وهي تنقاد معه ، صرخت صرخة عظيمة . وسمعت ديميتيه صرخة ابنتها ، فراحت ، قلقة ، تبحث عنها ، انما دون جدوى ، تسعة أيام وتسع ليال دون شرب ولا استحمام ، في كلٍ من يدها مصباح مضاء . وفي اليوم العاشر ، التقت بالالهة ايكات التي سمعت ، هي أيضا ، صرخة برسيفون ، وشاهدت خاطفها لكنها لم تتمكن من التعرف عليه لأن رأسه كان غارقاً في العتمة . على أن الشمس ، وهي ترى كل شيء ، أدركت الحقيقة ونقلتها الى الأم الثكلى التي ، من غضبها ، أقسمت الا تعود الى السماء ولا تقوم بمهماتها الإلهية ، حتى تعاد ابنتها إليها . فتلبست شكل إمرأة عجوز وأتت تقابل الوسيس ، وأمام قصر الملك سيليوس كانت تجتمع عجائز المدينة ، اللواتي دعونها الى مجالستهن وتناول الغذاء معهن . لكنها ، من حزنها ، رفضت كل دعوة . فألحت عليها إحدى العجائز ، واسمها بوبو ، ولما كذلك لم تقبل ، كشفت لها عن مؤخرتها وقربتها من الإلهة . فما كان من هذه ، الا ان ضحكت وقبلت ان تأكل . بعدها ، وضعت نفسها في خدمة الملكة ميتانيرا ، سيدة سيليوس الأولى التي جعلتها

مرضعة لديها . وعهدت اليها بالطفل ديموفون (ويقال له أيضاً تريبتوليم) ابن الملك . وحاولت ديميتيه جعل الطفل خالداً لا يموت ، فراحت تغطسه كل ليلة ، في حمام من اللهب ، الى ان فاجأتها ميتانيرا ليلة بهذا المشهد ، فصرخت مذعورة ، وسقط الطفل من بين يدي ديميتيه التي ، عندها ، كشفت عن حالها . عندها ، أوعزت الى تريبتوليم ، الإبن الثاني لسيليوس ، بمهمته أن يجوب العالم معلماً الناس زراعة القمح . فراح تريبتوليم في عربة تجرها تنانين ذات أجنحة ، وهو يبذر القمح وراءه .

ولما كان منفى ديميتيه الإختياري يجعل الأرض عقيمة ، ويخربط نظام العالم ، قرر زوس إعادة ابنتها لها ، فأوعز بذلك الى هادس ، لكن ذلك كان صار مستحيلاً لأن الصبية برسيفون كانت قطعت حياتها وأكلت حبة رمان من حديقة ملك الجحيم ، وصارت الى الابد مرتبطة بالعالم الجحيمي . وكان لا بد من تسوية : تعود ديميتيه الى مكانها في الأولمب ، وتتقاسم برسيفون وقتها بين الأولمب والجحيم . وهكذا ، كل ربيع ، كانت برسيفون تخرج من عالمها تحت الأرض الى النور ، مع اوائل النبتات التي تظهر في أثلام الحقول ، لكي تعود بعدها من جديد الى العتمة في أثناء البذار . ولكنها ، طالما هي بعيدة عن ديميتيه ، تبقى الأرض عقيمة ويكون موسم الشتاء الحزين .

هذه الأسطورة ، تتخذ أشكالاً عديدة محلية ، وهي دخلت عليها مقاطع جديدة ، وكانت مرجعاً رئيسياً لاحتفالات ايلوسيس الممتلئة رموزاً وتحركات رمزية .

كانت ديميتيه اذن ، مرتبطة عضوياً بزراعة القمح . وكان ديونيسوس الإله الذي يجسد قوى الكرمة والخمر . فهو ابن زوس من سيميليه (ابنة قدموس مؤسس تيبا) . ومن إحدى صفات ديونيسوس الروحانية ، انه

« المولود مرتين » ، نظراً لما يحاك حول قصة ولادته : فإنّ سيميليه ، التي أحبها زوس ، كانت موضع حسد أخواتها اللواتي استهجنّ نصديق انها استسلمت لعشيق سمج ، حتى سرى الشك في قلبها وارادت اثباتاً لألوهة عشيقها ، فطلبت منه أن يظهر بكل مجده ، كما كان يظهر أمام هيرا . أراد زوس الممانعة لكنه عاد فارتضى ، وظهر لها محاطاً بالصاعقة والبرق . ماتت سيميليه من الدهشة ، فأسرع زوس وسحب الجنين من أحشائها ولم يكن الا في شهره السادس ، ووضعه في فخذه . حتى اذا أكمل الجنين مدة الحبل به ، خرج من فخذ الإله كاملاً سليماً .

لكن زوس تضايق في اعالته وتربيته ، لأنه كان يخفي حسد هيرا . فعهد بالطفل سراً ، الى اينو ، احدى أخوات سيميليه ، وهي كانت زوجة آتاماس ملك ارخومين في البيوسي . وأوصى بأن يكون لباس الصبي انثوياً ، كي يلتبس الأمر على هيرا ، لكن هذه كشفت الأمر وغضبت على الملك وزوجته فانتحرا . فحمل زوس عندها ولده بعيداً عن اليونان ، الى بلاد نيزا التي لم يكن اليونان يعرفونها جيداً . فيقولونها تارة في آسيا وتارة أخرى في الحبشة . ويبدو أن الاسم وجد لإعطاء اسم للإله الصغير الذي دعي « زوس نيزا » .

وفي هذه البلاد النائية ، نشأ الطفل في رعاية الحوريات وفي شكل جدي (وصار الجدي أحد رموز ديونيسوس) . ولما كبر الطفل ، اكتشف الكرمة والخمر. لكن هيرا ضربته بالجنون حتى راح يجوب العالم طائشاً على غير هدى . فجاب مصر وسورية وصولاً إلى فريجيا حيث الالهة سيبيل (احد اشكال ريا أم الآلهة) طهرته وشفته من جنونه ودربته على أسرارها السحرية . وبعد هذه الفترة ، بدأت حياة المغامرات لدى الإله الصغير . وصار يرافقه موكب من الشياطين ، ذكوراً وإناثاً . وأضيف الى هذا الموكب

العجوز سيلين ، راكباً على حصان ، والستـران (ج ستـير وهـو شخص خرافي نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز) التي تمثل الأرواح التهتكية لدى الأرض والخمر . أما ديونيسوس ، فركب ظهر نمر وحمـل في يده رمحـاً في رأسه كوز صنوبر ومـزين بأكليل من الزهـر . وانطلـق من فريجيا غازياً صوب تراسيا ، حيث ليسورغ ، ملك البلاد ، استقبله سيئاً وأراد يأسره . ففتش ديونيسوس عن منفى ، وجده في جوار تيتيس الإلهة البحرية . ولكي ينتقم ليسورغ منه . أسر موكب حراسته من انـاث الشياطـين ، لكنهـن هربن متحررات بقوة سحرية مما دفع بالملك الى الجنون . فتنـاول فأساً وتوهم أنه يقطع دوالي الكرم فيما هو كان ، في الواقع ، يضرب فخذه ويبتر عضوه الذكر . ولـدى صحوتـه من جنونـه ، اكتشف أن البـلاد اصيبـت بالعقم . ولدى مراجعته العراف ، تبين ان ثورة ديونيسوس لا تهدأ الا اذا مات المذنب ، فأمرت توابع الملك ففسخته وقطعته إرباً .

من تراسيا ، قصد ديونيسوس الهند في موكب جلل . وكثيراً ما عمـل الرسامون والنحاتون القدامى على تصوير هذه الرحلـة الإحتفـالية للإلـه صوب الشرق ، مما يذكرهم برحلة الإسكندر .

ولدى عودته منتصراً الى اليونان ، حضر ديونيسـوس الى البيوسي ، بلاد أمه . لكن « بينتيه » إله تيبا ، تضايق من هذه العبادة الجـديدة ، التـي كانت تشد النساء الى أزمات ونوبات حادة ، تحملهن الى الركض في الجبل صارخات مذعـورات . فمنـع تلك العبـادات . وكما الملك ليسـورغ في تراسيا ، عوقب « بينتيه » على هذا المنع : وفيما كان يراقب على قمة سيثرون تحركات اناث الشياطين ، تناولته أمه وقطعته إرباً معتقدة أنه أسد . وراح التعبد لديونيسوس يزداد ، ومناهضاته تقاوم بالطريقة نفسها . منهـا مثـلاً بنات الملك برويتوس ، في أرغوس ، اللواتي ضربهن الإلـه بالهـذيان ،

فرحن يتهن في الجبل معتقدات انهن تحولن الى عجلات ، حتى انهن التهمن أطفالهن . وبعد اطاعة القارة كلها ، انطلق ديونيسوس الى غزو الجزر . واذا بالقراصنة الذين استأجرهم ليأخذوه الى ناكسوس ، يريدون بيعه أجيراً في آسيا . لكن المجاذيف تحولت الى حيّات ، وامتلأت السفينة لبالب ، وسمعت أصوات نايات خفية . فخاف القراصنة ورموا بأنفسهم الى الماء فتحولوا حيتاناً .

ولم يبق أمام الإله الا ميدان واحد قبل صعوده الى السماء : الجحيم . فقرر النزول اليه لإيجاد أمه سيميليه ليُشركها في مجده . ومعها ، أخيراً ، بلغ الخلود .

نلاحظ ، على عكس ما لدى سائر الآلهة الأولمبيين ، أن لديونيسوس سيرة حياة متممة ، منذ ولادته حتى خلوده . لكن هذا لا يعني ، كما درج التفسير ، أنه حديث العهد في حلقة آلهة اليونان . فلهذه الأسطورة جذور أخرى غير التي ذكرنا ، وهي أُدخلت إدخالاً على الجذور اليونانية . فجميع أساطير الطفولة تبدأ من النواحي الطقسية . ومقاطع تجواب العالم تدل على ذكرى العبادات ، في تراسيا ، والمقاومة التي لقيها إنتشارها . فثمة ديانة خاصة خلف تلك الأقاصيص ، مما يعطي الإله شكلاً آخر عما نعرفه لدى الآلهة اليونان الأخر .

في عصر الأولمبيين ، يبدو زوس السيد والمنظّم ، أحياناً تهدد كيانه القوي مؤامرات ، أو ضغائن من كائنات عملاقة أو وحشية ، وهي شهود العصر ، لكنها لا تصمد في وجهه . وثمة حوله عهد أسطوري بكامل أشخاصه . وسبق أن ذكرنا بظروف ولادته : وهو تُرك ، طفلاً ، في إحدى مغاور كريت ، على عهدة حوريات إيدا ، اللواتي غذينه بالحليب والعسل ، فيما حوله ترقص إناث الشياطين ، وهن من المحاربات راقصات

الحرب ، يهززن رماحهن صعداً ويتباهين بلعبة السيف والترس . وكان ما يثرنه من صوت عجيب ، يطغى على بكاء الطفل . كما سبق وألمحنا الى مراحل وصوله الى الحكم ، وهي تشكل منحى آخر للأسطورة . لكن أكثر المراحل شعبية ، تبقى تلك التي تروي زواجات الإله .

فزوجات زوس ، الشرعيات وغير الشرعيات ، عديدات ولا حصر لهنّ . أولهن ، تسلسلاً تاريخياً ، كانت ميتيس ، بعدها أتت تيميس (وهي تجسيد للعدالة) . وهي أعطت الإله ثلاث بنات كنّ الفصول ، وهنّ : ايرينيه (السلم) ، اونوميا (النظام) وديكيه (العدل) . ثم ثلاثاً أخرى كنّ الأقدار ، وهنّ : أتروبوس ، لاكيسيس وكلوتو . وهذا الزواج من تيميس له شكل من أشكال الأسطورة الفلسفية ، ذات المغزى الرمزي . فهي تظهر كيف ان زوس ، القوي ، هو تجسيد حي للنظام الأزلي ، وكيف أن القدر الذي يخضع له ، لا يحد من قوته في شيء طالما ان القدر في النهاية ، نابع منه .

بعد ذلك ، تزوج زوس التيتانية ديونيه ، وهي في بعض الروايات والدة أفروديت ، ثم تزوج منيموزين التي أعطته تسع بنات هن الحوريات التسع . أما من أورينوميه الأوقيانية ، فله ثلاث بنات هن الثلاث النِعم : آغلاييه وأوفروزين وتاليا ، وهن ، في الأساس ، أرواح النبت في الربيع .

حتى زواجه من هيرا ، أخته ، نوع من الزواج الإلهي ، لكنه كان النهائي والأخير ، لأن زواجاته اللاحقة من بشريات ، كانت خيانة لهيرا . وكنا ذكرنا زواجه من ديميتيه وولادة برسيفون . لكن هذا الزواج من أخت له ثانية ، لا يبدو أثار حسد هيرا ، وهو يرمز الى الأثر الفعال للمطر السماوي على الأرض .

وثمة زواجات أخرى له من بشريات لا تفسير بدائياً لها . لكن هذه الأساطير تهدف غالباً الى إقامة أنساب ، ولا تمثل إلاّ أهمية نسبية ومحلية . من هنا ان الإدعاء الكورنثي الذي قال ان كورنثوس هو « ابن زوس » ، كان غير صادق في سائر بلاد اليونان ، لكن الثابت في اينما كان ، أن السلالات الهيلينية الكبرى كانت تؤول في النهاية الى الإله . وهذا ثابت وصحيح خاصة في مدن البيلوبونيز : في آرغوليد (جدة الآتريديين) كان طنطال يُظن ابن زوس من بلوتو . وكذلك الأركاديون كان لهم جدّ أول هو أركاس ابن زوس من الحورية كاليستو . وهكذا اللقديمونيون كانوا يقولون انهم أولاد زوس من الحورية تايجيتيه ، إلهة قمة تايجيت . وثمة ، في أرغوليديا ، أن زواج زوس تجدد غير مرة : فالبطل أرغوس قيل ابن زوس من نيوبيه الآرجية ، وكذلك بيلاسغوس جد الشعب قبل الآكي . ومن زواج زوس ودانابيه ، كانت ولادة بيرسيه التي جعلت في أرغوليديا نسباً جديداً للإله . وفي ثيبا ، كان قدموس ينتسب إليه بواسطة ايبافوس وإيو . وكان الكريتيون يذكرون أوروبا والثلاثة الأبناء (مينوس ، ساربيدون ورادامانت) من الاله مينوس . أما في فتيوتيد وجزيرة ايجين ، فسلالة بيليه وسلالة تيلامون ، هما من « إياك » إبن زوس من الحورية ايجين . والطرواديون أنفسهم متحدرون من داردانوس ابن زوس من الثريا إلكتر . وهذه النسَب ، كما نرى ، تنطبق على أقدم السلالات في اليونان وعلى العائلات الملكية التي تحتفظ بلقب النبل وتبرر وجودها وأنسابها . واللافت أن الذين أعطوا أسماءهم الكبرى لسلالات الإتنية اليونانية القديمة ، كما آكايووس ، وايون ودوروس وآيلوس ، ليس زوس اباهم بل هم تحدروا من دوكاليون وبيرا . والدوريون ، آخر سلالات الشعب اليوناني ، كانت لهم أسطورة خاصة بهم : حين كانوا لا يزالون يسكنون

شمالي اليونان البرية ، حصل ملكهم ايجبيميوس على مساعدة هيراكليس ضد اللابيتيين جيرانه . مقابل ذلك ، أعطى البطل ثلث مملكته ، لكن هذا الأخير طلب منه منح ذلك بإسم أحفاده . من هنا أن هيلوس ابن هيراكليس ، هو الذي اعطى اسمه لإحدى الثلاث القبائل الدورية ، فيما الإثنتان الباقيتان تحملان اسم ديماس وبانغيلوس ، ابني ايجيميوس . لذا ، فثلث الدوريين يتعلق بواسطة هيلوس ، بهيراكليس والهيراكليين ، ومن ثم بزوس ، والد هيراكليس .

ثمة زيجات كثيرة لزوس مع البشريات ، تمت في صورة جيوانية : فمع أوروبا ، اتخذ الإله صورة ثور ، ومع ليدا صورة أوزة ، أو ان عشيقات اتخذن هيولات مماثلة : فصارت الحورية كاليستو دُبّة ، وصارت إيو دُبّة . وقد يكون في هذه المغامرات ، اسم زوس موضوعاً في أساطير موغلة في القدم ، اتخذ فيها الإله صور حيوانات أو صور تأليه ، مما يفسر « مطر الذهب » الذي اخصب دانابيه في شجنها ، ومرّ ذلك على انه « تجسيد » الإله . وكان اليونان يعتقدون ان زوس اخترع هذه الأشكال ليلتبس الأمر على هيرا ، أو ان هذه ، عقاباً لعشيقات زوجها ، جعلت لهن تلك التغيرات الهيولانية . وبقيت دانابيه أقوى من كل التغيرات لأن الذهب لا يقف في وجهه جدار ولا قفل .

ومهما يكن ، يبقى عهد زوس هو الذي يجمع في عصره أكبر عدد من العناصر ذات الجذور المختلفة ويكشف عن أعمق طبقات الديانة الهيلينية (اليونانية القديمة) : فزوس الكريتي ليس أصلياً ولا مشابهاً ، في مبادئه ، لزوس الأركادي أو زوس الفريجي .

والأساطير المتعلقة بكلٍّ من هذه الشخصيات ، تشابهت ، لكنها ، رغم هذا ، لم تتوصل الى ثبوتٍ ولم تصل بعد حدّ اللاهوت .

الفصل الرابع

العصور البطولية الكبرى

مقابل تشوش العصور الأسطورية التي للآلهة ، تتجلى العصور البطولية روايات مغامرات تتجمع فصولها في تأنٍ ، لتشهد على تفتح طابع أدبي بحت، وعلى ضآلة ما وصلنا عنها من أشعار أو قصائد ملحمية . أما الملاحم الهوميرية فشواذ عن القاعدة ، رغم كونها مختارات حول فترة معينة متأخرة وسط تقاليد مختلفة المصادر . من هنا ان لم يصل سوى بعض المقاطع الباردة من « الأناشيد القبرصية » أو « الإلياذة الموجزة » (وضعها ليشيس) ، اللتين تسردان مقاطع ثانوية من المغامرات والبطولات الطروادية. وكانت، ثمة، مجموعة من القصائد الشاهدة «ضاع أكثرها»، وأبرزها « الأوديسيه » الهوميرية . وفي عرض لأبرز العصور البطولية ، ثمة « مادة أسطورية » أكثر تحرراً من جذورها الدينية . ومن جهة ثانية ، تتمثل فيها الأساطير المسببة والعناصر الفولكلورية ، إنما تغلفها توسيعات جانبية روائية أو ذات ميول خلقية ورمزية .

على اننا لن نتوقف هنا الا عند ستة عصور كبرى ، أوحت بأكثر الآثار الأدبية وبقيت هي الأشهر . انها : غزوة الأرغونيين (بحارة سفينة آرغو) ، العصر الثيبي ، عصر الاتريديين ، عصر هيراكليس ، عصر

تيزيه ، وأخيراً مغامرات أوليس . وهذه المجموعـة من الأساطـير تغطـي نطاقاً جغرافياً يمتد تقريباً على كل العالـم الهيليني ، بدءاً من الطرف الشمالي للبحر الأسود ، حتى سيرينايكا ، مع أسطورة الأرغـونيين ، من ضفـاف الادرياتيكي حتى طروادة وسورية وكريت ، مع اساطير أوليس وقدموس والاتريديين . ولوحـظ أن هذه العصـور التـاريخية تتعلـق جميعهـا بعهـد الحضارة الميسينية ، وتوقيعها مناسب لمدن وجد فيها علماء الآثار دلائل تثبت هذا العهد . جائز اذن ، وربما أكيد ، أن تكون هذه العصور انعكاسـاً لأحداث تاريخية . انها تقدم لنـا ، على طريقتهـا ، جدول حضـارة ثابتـة الوجـود . أمـا العنـاصر الـروائية والمدهشـة فيهـا ، فلا يجـب أن تخفـي هذا الطابع . وإذاً ـ خلف مغامرات هرمس طفلاً او افروديت ـ يجب البحث في الخصـائص الـطقسية او النعـوت الـدينية ، فخلف مغامـرات آشيل واغاممنون وجازون ثمة ذكرى الهجرات والصراعات التي يجهلها التاريخ أو نسيها .

أما عهد الأرغونيين ، فقام حول شخص جازون وهو بطل تيسالي من سلالة أيولوس . أبوه أيزون كان يحكم ايولكوس على سفح قمة بيليون . لكن آيزون خلعه أخوه (غير شقيقه) ، بيلياس ابن بوزييدون ، فاضطر للجوء الى المنفى . وكما أغلب الابطال الأسطوريين ، نشأ جازون في كنف شيرون السنتور الذي علمه ، بين العلوم ، علـم الطـب . ولما بلـغ سن الرشـد ، ترك جازون سيده السنتـور ، وتقـدم ، مجهـولاً ، من بلاط ايولكوس . ولدى وصوله ، كان لابساً لباساً غريباً : ملفوفاً بجلد نمر ، في كل يد حربة ، ورجله اليسرى عارية على عادة محارب الايتوليين القدماء . ساعتها ، كان عمه ، في البلاط ، يقدم تضحية . فلما رآه ، تذكر بيلياس

العراف الذي كان نصحه بالحذر من الشخص ذي النعل الواحد . فاستقدم إليه السائح وسأله اي عقاب يفرضه على شخص يتآمر على ملكه . فأجاب جازون انه يرسله في البحث عن الجزة الذهبية . فبادره بيلياس عندها أنه (آي جازون) هو الشخص المذنب وأنه حكم على نفسه بالموت . فلم يكن على هذا الأخير إلاّ الانصياع والذهاب في رحلة البحث .

وتلك الجزة النادرة ، وبحثها كان صعباً ، كانت جزة كبش إلهي ذي جناحين كان هرمس أهداه الى نيفيليه أولى نساء الملك أتاناس الذي اختاره زوس مربياً لديونيسوس في أوركومين . وحين إيو ، ثاني نساء الملك ، نالت بطرائقها أن يُعاقَب فريكسوس وهيلّيه ، ابنا نيفيليه ، لتجنيب البلاد عقماً أكيداً ، كانت نيفيليه قدمت لهما الكبش الإلهي الذي حملهما في الأجواء . أما هيليه ، فسقطت في الطريق وغرقت فيما هي تجتاز المضيق الذي حمل من يومها اسم بحر هيليه .

أما أخوها فريكسوس فوصل سالماً الى كولشيد (في مقاطعة الكوكاز) حيث ضحى بالكبش أمام زوس وخصص جزته (وكانت من الصوف الذهبي) لأحدى غابات آريس المقدسة . فما كان من ملك كولشيد ، آييتيس (وهو كورنثي راح يبحث عن الثروة على ضفاف البحر الأسود) الا أن احتفظ ـ حسداً ـ بتلك الجزة . . . هذه هي المجازفة ، في الرحلة التي فرضها بيلياس على جازون .

لاستكمال مهمته ، بدأ جازون بالإستعانة بأرغوس ، ابن فريكسوس . وبناء على نصيحة أثينا ، بدأ أرغوس يبني سفينة شراعية دعيت « سفينة أرغو » ، وكانت لها خصائص ممتازة ، منها أن مقدّمها كان

جذع سنديانة دودون النبوية ، كانت الالهة (دودون) وهبتها الكلام ، حتى بات في إمكانية السفينة أن تتنبأ . وفيما كانت هذه تُصنع ، كان جازون يحاول جمع ما أمكنه من رفاق، سماهم استقصاء كتاب الأساطير والشعراء « الأرغونيين » أو « بحارة أرغو » ، وجعلوا عددهم كبيراً . وبينهم نجد اسماء أبرز أبطال العصر السابق لحرب طروادة ، وهؤلاء هم آباء المحاربين الآخيين رفاق آغاممنون وآخرين من العصر الثيبي ، كما الكاهن العراف أمفياراوس . وثمة تقليد ، ربما متأخر ، يُدخل معهم هيراكليس ، وحتى ابنه هيلوس كذلك . لكن الارغونيين الأكثر شهرة ، والذين لعبوادوراً فعالاً في المغامرة ، هم : المغني تراس أورفيه ، وكالاييس وزيتيه ابنا بوريه ، ثم كاستور وبولوكس ابنا تندار ، وأنسباؤهم الذين أبرزهم ايداس ولينسيه ابنا آفاريه . أما الكاهن العراف الرسمي للرحلة ، فكان ايدمون ابن آباس الآرجي .

وابتدأت الرحلة الطويلة في ظروف مؤاتية . وكانت النبوّة أن يعودوا جميعهم سالمين ، إلاّ ايدمون . المحطة الأولى : جزيرة ليمنوس التي عهدئذ ما كان فيها سوى نساء ، كنّ ، أثر لعنة من أفروديت،قتلن جميع رجال الجزيرة وصرن في حيرة من أمر استمرارية نسلهن . لذلك استقبلن الأرغونيين في حفاوة كبيرة ، مما جعل هؤلاء يبذرن فيهن أطفالاً . بعد ذلك ، توجهوا الى بحر هيليه ، حيث استقبلهم سيزيكوس ملك الدوليونيين ، في حفاوة هو أيضاً . انما ، في الليلة التالية ، حين أقلع الأرغونيون مغادرين ، هبت رياح بحرية أرغمتهم على الرجوع الى مملكة سيزيك . لكن الدوليونيين لم يتعرفوا اليهم ، هذه المرة ، واعتقدوهم قراصنة فهاجموهم . فهرع الملك سيزيكوس على الضجة . وفي زحمة

المهاجمين ، قتله جازون . ولدى الفجر ، عرف الفريقان خطأهما . وطوال ثلاثة أيام أقام الأرغونيون مأتماً احتفالياً للملك ، وأطلقوا صرخات انتحاب وقاموا بألعاب جنائزية .

بعد ذلك ، ارتحل الارغونيون الى ميزيا . وفيما كان رفاق هيراكليس يهيئون طعاماً ، وكان هو كسر مجذافه لقوة تجذيفه ، فذهب الى الغابة يقتطع شجرة ليصنع مجذافاً آخر . وكان الفتى هيلاس خادماً لهيراكليس ، فذهب يبحث في الغابة عن مياه عذبة . فالتقى الحوريات على ضفة نبع ، يرقصن في جنون . فوجدنه جميلاً فجذبنه الى النبع حيث غرق وصرخ صوت استغاثة قوياً سمعه هيراكليس فنادى أرغونياً آخر يدعى بوليفيم راح معه يفتش عن صديقه هيلاس . وبقيا يفتشان في الغابات طوال الليل ، وعند الصباح ، ابحرت السفينة ولم يكونا عليها ، فأكمل الأرغونيون رحلتهم بدونهما ، كما جاء في النبوة ، أن لا يشترك هيراكليس وبوليفيم في البحث عن الجزة . وأسس بوليفيم في الجوار مدينة سيوس ، فيما هيراكليس أكمل وحده مغامراته واكتشافاته .

وصل الأرغونيون الى بلاد البيبريسيين ، حيث اضطر بولوكس الى مقاتلة الملك اميغوس فغلبه ، وفي اليوم التالي لفّت عاصفة بحرية السفينة أرغو فاضطرت الى الرسو على شاطىء تراسيا في مملكة فينيه . وكان فينيه كاهناً عرافاً أعمى لعنه الآلهة ، بعقاب أن كلما وضعت أمامه طاولة عليها مآكل ، تهجم فوقها طيور كاسرة تأكل ما عليها ، وتوسخ ما يتبقى منها . وسأل الأرغونيون العراف عن مخرج رحلتهم ، فرفض مساعدتهم قبل ، ان يخلصوه من تلك الطيور الكاسرة . فهب كلاييس وزيتيه ، وكانت لهما أجنحة ، في أثر تلك الطيور فلقياها فوق جزيرة ستروفاد ، فجعلاها

تقسم على عدم اهانة الملك . عندها كشف فينيه المستقبل للبحارة ، وحذرهم من الصخور الزرقاء ، التي يخشى انْ تكسر سفينتهم وتغرقها اذ كانت من مجموعتي صخور تتلاطم كلما مرت بينها سفينة .

وبالفعل ، لدى اكمالهم الإبحار ، وصل الارغونيون الى تلك الصخور . ولمعرفة مشيئة الآلهة ، أرسل البحارة حمامة ، ذهبت رأساً الى الصخور ، فانضمت كما دائماً ، ولم تدهس الا ريشة من ذنب الحمامة . تشجع الأرغونيون وحاولوا العبور . فانضمت الصخور من جديد لكنها لم تلحق إلاّ بآخر قطعة من الكوثل (مؤخر السفينة) فجرحتها قليلاً . ومن يومها ، صارت تلك الصخور جامدة لا تتحرك إذ جاء في حكم القدر انها تتجمد فور عبور سفينة بينها دون أذى . هكذا كان دخول الارغونيين الى البحر الأسود . وبعد محطات غير كثيرة ، بلغوا كولشيدا لدى آييتيس فعرض جازون للملك غاية الرحلة ، فلم يتمنع آييتيس عن إعطائه الجزة ، لكنه فرض شرطاً : ان يقوم البطل ، دون أية مساعدة ، بتثبيت النير على رقبتي ثورين ينفثان ناراً من منخريهما . وكان ذانك الثوران هديتين من هيفايستوس ، ولهما قوة عظيمة . وظنّ الملك انه بذلك يقضي على جازون . لكنه فشلَ اذ نجح البطل بذلك . ففرض عليه الملك ثانية أن يقوم مع هذين الثورين بحراثة حقل وزرع أضراس التنين آريس فيه .

وحار جازون في أمره وكيف يمكنه القيام بهذا العمل مع وحشين هائلين . واذ هو في حيرته ، هرعت الى نجدته ابنة الملك ، واسمها ميديا وكانت تحبه كثيراً . فأعطته بلسماً سحرياً يمسح به جسده فيقيه من الحرائق . فتوصل جازون الى زرع الأضراس ولجم الثورين . فإذا من أضراس التنين المزروعة ، يخرج حصاد بشري : عدد من محاربين مدججين

بالسلاح . فرمى جازون حجراً في وسطهم ، فاتّهم المحاربون بعضهم بعضاً بالحجر ، واقتتلوا حتى أبيدوا .

مع كل هذا ، لم يف ايتيس بوعده ، وكان على أهبة أن يحرق السفينة ، حين توصل جازون ، في مساعدة ميديا ، الى أخذ الجزة والهرب بها ، آخذاً معه الصبية التي حملت معها أخاها أبسيرتوس . لكن الملك ، غاضباً على هذا المقلب لحق بهم . ولتأخيره ، قتلت ميديا أخاها ونثرت أعضاءه في البحر ، فلقيها الملك فأمضى في جمعها كلها ، متأثراً ، وقتاً طويلاً تعذر عليه بعده اللحاق بالسفينة . لكنه جيّش لذلك فرقاً أمرها باللحاق بها وبألاّ تعود دونها والا قتل جميع جنود تلك الفرق .

لكن الارغونيين ، في هذه الأثناء ، كانوا غيّروا طريقهم صوب الدانوب مكملين الى البحر الأدرياتيكي . وظنوا النهر ممراً بين بحرين ، وأن نهر البو يجمع الادرياتيكي مع الرون وبلاد السلتيين . ومن مدخل الرون ، بلغ الارغونيون المتوسط . ومن صوت السفينة ، فهموا أن زوس غاضب جداً لقتل ابسيرتوس وأن عليهم تطهير ذواتهم لدى الساحرة سيرسيا وهي أخت آيتيس وعمة الصبي وميديا . ونظراً لاضطرارهم الى الطاعة ، شططوا في بلاد سيرسيا (على الشاطئ الايطالي) ، فطهرتهم وعادت السفينة تكمل رحلتها البحرية . ولدى اجتيازها بحر الجنيات البحرية ، غنت أورفيه ميلوديا جميلة اسكتت الجميع وصمتهم عن سماع الجنيات . وعند اجتيازهم مضيق مسينا ، وصلت السفينة الى جزيرة الفياسيين ، حيث التقى الارغونيون عدداً من الكولشيديين مطارديهم . لكن السينوس ، ملك الفياسيين رفض تسليمهم فقاد الارغونيون الى اكمال رحلتهم البحرية . وحملتهم عاصفة قوية الى ضفاف « سيرتا » على الشاطىء الليبي ،

فاضطروا ، ليحتموا ، أن يحملوا زوارقهم على أكتافهم حتى بحيرة تريتونيس ، وقام اله البحيرة ، تريتون ، ودلهم على مخرج يمكنهم منه الخروج الى البحر . ومن هناك ، أرادوا بلوغ كريت ، لكن العملاق تالوس ، ذا الجسم البرونزي ، منعهم من بلوغ الجزيرة . واذا بميديا ، من حيلة أنثوية سحرية ، تجعل تالوس يكسر دساره على الصخور ويموت . فقطع الارغونيون الشاطىء بعدما رفعوا ذبيحة لأثينا . وبعد عدة ايام في البحر ، عادوا الى اليونان ، فتوقفوا في ايجين ، وابحروا من جديد الى ايولكوس حاملين الجزة الذهبية .

لكن مغامرات جازون وميديا لم تنته ، فقررت ميديا الإنتقام من بيلياس ، فتقدمت من بناته واقنعتهن أن في امكانها إعادة والدهنّ الى شبابه . فقبلن فقطعت كبشاً الى إرب ووضعته في مرجل يغلي ويحوي حشائش سحرية ، فخرج من هذا نعجة صغيرة . فتحمست البنات ، وجئن بوالدهن فوضعنه في المرجل بعد تقطيعه ، لكن بيلياس . . . لم يولد ، بل مات الى الأبد .

بعد هذه الجريمة ، حلت اللعنة من ايولكوس على جازون وميديه ، فانسحبا الى كورنثيا حيث عاشا زمناً الى أن قرر كريون ملك البلاد ان يزوج ابنته الى جازون ، فاضطرت ميديا الى الامحاء ، وقدمت لضرتها وشاحاً ممتلئاً سماً أحرقها وأحرق معها القصر وما فيه ومن فيه . ولاكمال ثأرها ، قتلت ميديا اولادها من جازون ، وطارت في عربة ذات أجنحة . وفي آواخر حياتها ، بعد رحلة الى أثينا حد ايجيه والد تيزيه ، عادت الى كولشيد حيث أعادت الملك الى آييتيس الذي كان أخوها برسيس انتزعه منه .

ليس في العصر الثيبي وحدة كما في سواه ، وهو ليس في شكل سرد متواصل ؛ انما ذو تتابع مقاطع متفرقة .

أول هذه المقاطع ، يدور في سوريا ، مع خطف أوروب . وهذه ، كانت ابنة أجنور ملك صور[1] . ذات يوم ، وهي تلهو على رمال الشاطىء مع رفيقات لها ، خرج ثور من الأمواج ، وهرع خاراً على قدميها ، مما أخافها كثيراً ، ثمّ هدأت فداعبته وامتطت ظهره ، فهب نحو البحر ماخراً إياه حتى غورتين في جزيرة كريت حيث تغير شكل الثور هيولانياً ، فإذا هو زوس ، عشيقها الذي قام بهذه الخدعة ليخطفها . وانجبت أوروب لعشيقها ثلاثة أولاد : مينوس ، ساربيدون ورادامانت . ولدى الخطف ، أوعز أجنور الى أولاده أن يذهبوا الى البحث عن أختهم ، مهدداً الا يعودوا قبل ايجادها . بين هؤلاء ، كان قدموس الذي ، لشدة ما فتش عبثاً ، ويائساً من أيجاد أخته ، لجأ الى عراف دلف . فكان الوحي أن يترك حملة تفتيشه العقيمة ، ويؤسس مدينة . ولكي يحدد هذه ، كان عليه أن يتبع بقرة « تحمل شعار القمر » ، الى أن تسقط البقرة منهوكة . واذ كان يجتاز فوسيد ، رأى بقرة تحمل على خاصرتها صورة قمر أبيض ، فتبعها حتى بلغت البيوسى ، حيث ستقوم ، في ما بعد ، حاضرة ثيبا . وهناك ، كان نبع يسمى نبع آريس ، يحرسه تنين صرعه قدموس . فظهرت له أتينا ونصحته بأن يزرع في الأرض اضراس التنين . فخرج منها محاربون مدججون راحوا يتقاتلون ، حتى لم يبق منهم سوى خمسة أسسوا سلالة السبارطيين (الرجال المزروعين) . وعقاباً له على قتل التنين ، اضطر قدموس[2] الى خدمة آريس سبع سنوات . ولدى انتهاء المدة ، تزوج ابنة

(١) ويقال أيضاً، لهذا الملك اللبناني، أشنّار. (المترجم)

(٢) جاء في الرواية اللبنانية لهذه الأسطورة ، ما يلي : « لما اختطف زوس ، كبير =

آريس وأفروديت ، الإلهة هرمونيا التي وهبه اياها زوس نفسه .

وفي آواخر حياتهما ، غادر قدموس وهرمونيا مملكة ثيبا لأولادهما وهاجرا الى ايليريا حيث حكم قدموس شعب الإنكيليين . بعدهـا ، تحولا الى حيتين ، وزحفا حتى بلغا الجنة .

أما سلالة قدموس ، فأكملها حفيده لابداكوس وبعده ابنه لايوس . وفي قصر لايوس ، وقعت مملكة ثيبا بين أيدي المغتصبين ، فنفي لايوس الى ايليديا في جوار الملك بيلوبس ، حيث عشِق ابن هذا الآخير ، وكان حليقاً وجميلاً ويدعى كريزيبوس ، فكان اللواط . ولما أدرك بيلوبس بشذوذ لايوس ، لعنه وطرده . وكان غاصبو ثيبا ماتوا ، فعاد اليها لايوس مستعيداً مملكته . لكنه ظلّ حاملاً فيه لعنة بيلوبس ، وكان عراف دلف انبأه ان بات ممنوعاً عليه الإنجاب . ولو هو فعل ، لقتله وليده وكان ذلك عامل ويل على عائلته . لكن لايوس لم يقتنع ، وأنجب اوديب ـ انما ـ حذراً من النبوءة ـ أمر بتربيته في الجبال . وكان ثقب عرقوبيه وضمهما الواحد الى الأخر ، ومن هنا اسمه ، لأن كلمة اوديب تعني « الرِجلان المتفخختان » . على أن أوديب لم يمت كما تمنى والده ، إذ احتواه رعيان ملك كورنثيا (أو سيسيون) ، بوليبوس ، وربوه في بلاط الملك الذي وزوجته بيريبوا ،

= الآلهة ، اورب ، بنت ملك صيدون ، لحق بها قدموس الى بلاد الأغارقة . وفي البيوسى قتل تنيناً كان فتك باثنين من رجاله . وبأمر إلهة الحكمة ، بذر أضراسه في الأرض ، فأنبتت رجالاً شاكي السلاح اقتتلوا إلا خمسة أصبحوا في ما بعد نبلاء ثيبا ، أولى مدن مئة واحدى سوف يبنيها قدموس .

واورب هي التي أعطت الغرب اسمها كما أعطاه قدموس حروف الهجاء ، وهكذا كانا الواحدة رسالة الحب والآخر رسالة المعرفة . (عن تصدير « قدموس » ، لشاعر لبنان سعيد عقل) (المترجم)

اعتقدهم الطفل والديه الحقيقيين . واذا هو على هذا الإعتقاد ، حتى يوم جاء أحد الكورنثيين الكان على خلاف مع اوديب ، فهمس له انه ولد متبنّ فقرر اوديب عندها الذهاب الى عرّاف دلف لاستنطاقه الحقيقة . ولديه ، فهم الحقيقة ، إذ على مفترق بوتنييه ، التقى الملك لايوس في طريق ضيق . فأمره نذير لايوس أن يفتح له الطريق ، لكن أوديب لم ينصع للأمر فقتل له النذير أحد أحصنته ، فما كان من أوديب الا أن قتل النذير وسيده .

وكان أوديب لا يعرف مدى خطورة جريمته ، فأكمل طريقه نحو ثيبا ، حيث بلغ السفنكس (كائن اسطوري نصفه أسد والآخر امرأة) وكان يطرح أحاجي على المارة ويفترس الذين منهم لا يعرفون الجواب . أما أوديب فحلّ جميع الأحاجي فكان أن ارتمى السفنكس على الصخور فمات . عرفاناً منهم بالعمل ، أقام الثيبيون هذا الغريب ملكاً عليهم ، وزوجوه جوكاست زوجة لايوس . لكن الطاعون عمّ المدينة ، وقال العراف أنه ستتفشى فيها حتى يُعاقَب قاتل لايوس . وانكشفت حقيقة القاتل ، ففقأ أوديب عينيه ندماً وعمي ، فانتحرت جوكاست شنقاً . ولم تشف اللعنة ظمأها ، فكانت ويلات كثيرة على الجيل الذي تلا .

وبعد فقده نظره ، ذهب أوديب في منفى اختياري ، لم يرافقه إلاّ ابنته الصغرى انتيغون . وانسحب الى كولونا في أعماق اليونان ، تحت حماية تيزيه ، تاركاً في ثيبا ولديه ايتيوكل وبولينيس اللذين قررا ان يحكما بالتناوب . الأول في الحكم كان ايتيوكل ، فابتعد أخوه عاماً رجع بعده ليفاجأ بأخيه يرفض تسليمه الحكم ، ويطرده من المملكة ، فهرب الى أرغوس ، في جوار ادراست ، وانهمك في تجييش فصائل قوية يستعيد معها

حقوقه . ومن هنا كان أصل حرب السبعة القادة ضد ثيبا .

في جيش بولينيس ، اضافة الى أدراست ، كان تيديه الكاليدوني وهو أيضاً منفي ، وكان كابانيه وايبوميدون الآرجيان ، وبارتينوباوس الاركادي ابن ميلانيون وآتالانت ، وأخيراً كان امفياراوس أحد ابناء العائلة المالكة في أرغوليد . وكان هذا الأخير يعرف ان المعركة خاسرة لكنه اضطر الى الإشتراك بها مرغماً من زوجته ايريفيل التي كان أقسم على طاعة أوامرها ، والتي كان بولينيس رشاها بعقد إلهي كانت لبسته هرمونيا في عرسها مع قدموس .

على طريق المعركة ، أسس السبعة القادة ، الألعاب النيمية ، وبلغوا ثيبا ، فتلقوا الأوامر أن يضرب كل منهم باباً من سبعة أبواب المدينة . وما أن بدأوا الهجوم حتى أبيد جيشهم كله ، الا أدراست نجا بفضل سرعة حصانه آريون . وسقط ايتيوكل وسقط بولينيس اذ هما اقتتلا .

وبقي كريون ، شقيق جوكاست ، سيد الموقف ، فأمر بأن تعاد للتيبيين كرامتهم ، فحملت جثة ايتيوكل وبقيت في مكانها جثث الأعداء . لكن انتيغون رفضت ترك جثة شقيقها بولينيس دون مدفن ، فنثرت على جثمانه بعض الغبار ، وهذه بادرة طقسوية تعيد الى الدين بعض اعتبار . ومن أجل هذا ، اعدمها كريون بالقائها حية في مقبرة اللبداسيديين . لكنها انتحرت شنقاً في سجنها قبل تنفيذ الحكم ، وهامون ، خطيبها وابن كريون انتحر فوق جثمانها حزناً عليها .

رغم هذا ، لم تكن مصائب ثيبا انتهت بعد . وقام أبناء السبعة القادة ، فاعادوا معركة آبائهم بتحريض من أدراست . فكانت حملة الابيغونيين التي

قام بها جيش اصغر من السابق انما بتحضير أقوى . فهزمت ثيبا وتبدد أهلها وامحت من لائحة المدن اليونانية . لذا ، الملاحظ أن جدول « الإلياذة » لا يذكر ثيبا ، بل اسماً آخر لها هو لمدينة لاحقة لأطلال القلعة . وشاعت التقاليد أن تكون حرب الابيغونيين جرت قبيل حملة الأتريديين ضد طروادة .

إنّ عصر الاتريديين يتعلق هو أيضاً بـ « بيلوبس » الذي لعنة منه جعلت حصول الكوارث التي ميزّت هذا العصر .

وكان لبيلوبس وزوجته ايبوداميا ، ولد اسمه أتريه متحدر من طنطال ومن ثم من زوس . وله ، بين أخوته ، أوسط يسمى تييست يكرهه حتى الموت ، كرهاً هو حصيلة اللعنة الأبوية . وكان الأخوان ، بتحريض من ايبوداميا ، قتلا أخاهما الأصغر كريسيبوس ـ الكان أحبه لايوس وتلاوط معه ـ فلحقتهما لعنة أبيهما . فهربا والتجآ الى ميسان قرب ستينيلوس الذي أعطاهما مقاطعة من بلاد الأرغوليد هي مدينة ميديه . وفي ما بعد ، عند موت أوريستيه ابن ستينيلوس . قرر أهل ميسان اختيار أحد ولدي بيلوبس ملكاً عليهم . وكان على الأخوين أن يعددا ، أمام الأهالي ، المعطيات التي تؤهل واحدهم أن يستلم الملك . وكان أتريه وجد بين قطيعه ، نعجة ذات جزة من ذهب ، فأخذها ووضعها في صندوق . واقترح تييست أن يكون من الأخوين ملكاً الذي يملك جزة من ذهب ، فقبل اتريه الإقتراح فوراً ، فرحاً ، غير مدرك أن زوجته آيروبيه التي كانت عشيقة بريست ، أخذت الجزة من صندوق زوجها وأهدتها الى عشيقها . وعند الإثبات ، حمل تييست الجزة الى الأهالي ، فانتخبوه . مع أن اعجوبة ـ غروب الشمس في المشرق ـ امرت أن ارادة الآلهة في جعل أتريه

ملكاً ، فكان أن انتصر هذا الأخير على أخيه واستولى على الحكم ، فقام بينهما صراع خفي ، فقتل أتريه ثلاثة من أبناء تييست انجبتهم له حورية ماء ، وقدمهم في اثناء مأدبة لوالدهم . وبعدما أكل تييست ، حمل اتريه اليه رؤوس أولاده وكشف له حقيقة الغذاء الذي تناوله . ثمّ نفاه فالتجأ الى سيسيون غير مفكر الا بالثأر . وبناء على نصيحة أحد العرافين ، تزوج ابنته بيلوبيا دون أن يفصح لها عن نيته ، ورزق منها ولداً اسماه ايجيست . ثم جعل ان تتزوج بيلوبيا عمها أتريه الذي أهتم بتربية الطفل غير مدرك من أبوه . ولما كبر الصبي ، أوكل اليه اتريه مهمة قتل تييست . لكن ايجيست اكتشف في آخر لحظة سرّ مولده ، وأحجم عن قتل ابيه ، ولدى عودته الى ميسان ، قتل عمه أتريه وسلم الحكم لأبيه تييست .

ترك اتريه ولدين ، هما أغاممنون ومينيلاس ، أصلا الأتريديين في الملحمة وفي الروايات المأساوية . ومع هذا الجيل ؛ يدخل ذاك العصر في المغامرة الطروادية ، ليبقى الموضوع الأهم فيها هو الكره المتبادل بين ولدي بيلوبس ، والذي سيولّد ، بعد ، كوارث عديدة . أما أغاممنون ، فراح يتتبع نسل تييست ، ومنه طنطال (على اسم جده) الكان تزوج كليتمنستر احدى بنات تندار . فإذا بأغاممنون يقتل طنطال في الوقت الذي ولدت له زوجته طفلاً ، وتزوج كليتمنستر . وهذا الزواج الذي جاء في ظروف سيئة ، كانت نهايته مأساوية إذ قام ايجيست فقتل أغاممنون .

وأما مينيلاس ، شقيق أغاممنون ، فأراد الزواج من ايلين ، أخت كليتمنستر . وهي كانت ابنة تندار حاكم سبارطه ، وليدا زوجته ، لكن كلاً منهما يعلم أنها مولودة من بيضة ـ باضتها أو حضنتها ليدا ـ وأن أباها الحقيقي هو زوس الذي تزوج أمها في شكل بجعة . واذ كانت ابنة زوس ، من الطبيعي أن تكون ايلين رائعة الجمال ، يتقدم لطلب يدها أهم

ملوك اليونان . وعلى نصيحة من أوليس ، طلب تنـدار من طالبيهـا ان يساندوا جميعهم ذاك الذي تختاره ايلين من بينهم . ووافقوا فاختارت مينيلاس أغناهم .

ولبعض الوقت ، عاشت ايلين هادئة في سبارطة وولدت لزوجها بنتاً سمياها هرميون . وفي هذه الأثناء ، قامت مشادة في الأولمب بين الإلهات . ذلك ان إريس (رمز الفتنة) كانت رمت تفاحة من ذهب في مجلس الآلهة ، مقترحة أن تكون للأجمل بين الثلاث الإلهات : أثينا وهيرا وأفروديت . ولم يشأ أحد في الأولمب ان يقرر ذلك ، فقام زوس يكلف هرمس قيادتهن الى ترواد حيث كان باريس الراعي (إبن الملك بريام) يرعى قطيعه . وبدأت كل منهن تعرض قضيتها عليه ، مقدمة له وعوداً . فوعدته هيرا بتسليمه امبراطورية آسيا كاملة ، ووعدته أثينا بالحكمة والإنتصار في معاركه . أما أفروديت فاكتفت إذ وعدته بحب ايلين سيدة سبارطة . فقرر باريس ان أفروديت هي الأجمل . عندها ، جاء الفْريجي الى بلاط مينيلاس حيث استقبل في حفاوة ولما اضطر مينيلاس للذهاب الى كريت مشاركاً في جنازة جده كاتريه - ترك ضيفه في عهدة زوجته ايلين التي - بإرادة أوفروديت - إنجذبت إليه فجمعت كل حليها وابحرت الى ترواد تاركة هرميون الطفلة .

لدى عودته ، استدعى مينيلاس أخاه وقررا تذكير الملوك اليونان بالوعد الذي قطعوه فوفوا به مساندين مينيلاس ، كلٌ معه مجموعة متطوعين ، للذهاب الى طروادة والعودة بايلين ، وتم القرار على جعل أغاممنون « ملك الملوك » ، وسقطت الحملة الأولى . كان اليونان يجهلون طريق طروادة ، فابحروا الى ميزيا . فالسكان في قيادة ملكهم تيليف ، بعثروهم ودخل

كل إلى مدينته . ولكن بعد ثماني سنوات ، تمكن أغاممنون من جمع جيش جديد تمحور في أوليس . بقي البحر مقفلاً في وجه السفن ، والريح المؤاتية لم تهبّ . ولدى سؤال كالشاس العراف ، أجاب ان سبب ذلك غضب أرتميس : إما لأن أغاممنون ، يوماً في رحلة صيد ، لدى قتله ظبية ، أدعى ان الآلهة نفسها ما كانت لتصطاد أفضل منه ، وإما لأن اتريه ، ذات يوم ، لم تقدم للإلهة ، النعجة الذهبية التي وجدت بين قطيعها . ومهما يكن ، كانت الإلهة تطلب أضحية . وفرضت التضحية أمام مذبحها بايفيجينين ابنة أغاممنون . فرضي هذا الأخير وتمت الأضحية مع أن إحدى الروايات تقول إنّ الإلهة ، في اللحظة الأخيرة ، وضعت ظبية مكان الصبية وحملتها الى أحد معابدها في توريس حيث جعلتها كاهنتها .

وأخيراً ، تمكنت السفن من رفع المرساة ، وبلغت ترواد ، في حرب بقيت عشر سنوات ، التسع الأولى منها بطيئة ، فيما العاشرة ، انصرف اغاممنون وآشيل (تيساليّ وابن بيليه من الإلهة البحرية تيتيس) الى أعمال قرصنة ضد المدن المجاورة . وتوصلا ، بين أفعالهما ، الى أخذ رهينتين : بريزييس وكريزييس ، الأولى لأشيل والثانية لأغاممنون . لكن والد الثانية كان كاهن أبولون ، فتوسل إلهه يسترد له ابنته ، فأرسل الطاعون الى معسكر القراصنة . وقال العراف كالشاس أن ذلك لتسليم كريزييس ، فقبل أغاممنون لكنه تمسك ببريزييس ، مما أغضب آشيل . فانصاع لأوامر « ملك الملوك » ، لكنه قرر الا يشترك بعدها بأي صراع . ولم تفلح نجاحات الطرواديين في المعارك ، لتحمله على العدول عن قراره ، ولا نفعت وساطات القادة . وظلّ ذلك حتى وصل الطرواديون الى الشروع بحرق سفن أعدائهم وتدميرها . ولدى هول الخطر ، جاء باتروكل ، الصديق الحميم لأشيل ، يطلب منه اذنه بأخذ مكانه في القتال . فوافق

آشيل واعطاه حتى سلاحه . وانخدع الطرواديون ظناً منهم أن الهاجم هو آشيل نفسه ، فتراجعوا ثمّ أعادوا الهجوم فلقي باتروكل مصرعه . فتحمس آشيل لأخذ الثأر ، فخرج وحده ودون سلاح ، فهابه المهاجمون وانحسروا . وأنقذ جثمان باتروكل ، وأقيم له مأتم حافل . عندها حملت تيتيس أسلحة جديدة الى ولدها ، وعادت المعارك . فإذا بأشيل ، الذي طرد الطرواديين وأرغمهم على التراجع خلف أسوارهم ، يجد نفسه وحيداً في مواجهة هكتور ، أشرس اولاد بريام ، والسند الحقيقي للقوة الطروادية . وفي الأولمب ، وضع زوس قدر الرجلين في ميزان ، فرجحت كفة هكتور ، وأصاب سهم أشيل صدر الطروادي الذي مات وهو يتنبأ لخصمه أن سيلحق به قريباً الى الجحيم . فربط أشيل الجثمان بعربته ودار به ثلاث مرات حول المدينة . وسقطت طروادة ، وقُتل آشيل بسهم من باريس (الذي يديره ابولون) ، وخلفه ابنه نيوبتوليم . وفي الوقت نفسه ، جيء بفيلوكتيت ، حامل سهام هيراكليس ، التي يجد العرافون استحالة احتلال المدينة بدونها . بعدها ، طالب اليونانيون بعظام بيلوبس ، على انها فأل ضروري للانتصار . ثم متنكراً بسمة منشق ، دخل أوليس الى المدينة المحاصرة وخطف البالاديوم (تمثال بالاس إلهة الحكمة ، وكان اليونان يعتقدون سلامة طروادة مرهونة به) . ولدى تحقيق جميع هذه الشروط ، بقي اعتماد حيلة أخيرة : تظاهر اليونان بالإنسحاب ، فابحروا جهاراً ، وتركوا على رمال الشاطىء حصاناً خشبياً كبيراً ، وراحوا فربطوا مراكبهم خلف جزيرة تينيدوس ، مقابل طروادة . وكانوا تركوا أحد قادتهم ، سينون ، ينهزم طوعاً أمام الطرواديين ويأسره أوليس . وقبل أن يموت ، قال ان الحصان الخشبي هو هدية الإغريق الى الآلهة أثينا ، وانهم بنوه كبيراً ليحرموا الطرواديين من إدخاله الى مدينتهم ، لأنه ، اذا دخلها ، تصبح

المدينة منيعة فلا يدخلها أحد . وصدق أكثر الطرواديين هذا القول ، رغم تنبيهات لاووكون أحد كهنة أبولون . واذا ، في اثناء تقديم أحدى الأضحيات التي يقدمها لاووكون ، خرجت حيّتان من البحر ، وابتلعتاه مع ولديه . فلم يعد في وجه الطرواديين رأي معاكس ، فهدموا أسواره وادخلوا الحصان الخشبي الكبير الى داخل المدينة . فقام سينون وايلين بالإشارة نفسها المتفق عليها ، فعادت السفن نحو طروادة . وهاجم الإغريق المدينة من كل جانب ، وخرج الجنود الكائنوا في بطن الحصان الخشبي ، وكسروا جميع الأبواب . وبعد الإنتصار ، عاد الجيش . وعاد أكثره جماعات غرقت سفنها في رأس كافاريه ، في ايوبيا ، ولم ينج من الغرق سوى بعض القادة الذين بلغوا بلدانهم ليجدوا فيها الفوضى هائلة ، فنساؤهم لم تحتملن الغياب وابرزهن كليتمنستر التي بقيت طويلاً وفية لزوجها ، رغم تظلمها منه ، لكنها سمعت صوت ايجيست ، وعندما عاد أغاممنون كانت قررت قتله . وشدد من عزمها على ذلك ، أن وجدته يحمل معه رهينات طرواديات ، بينهن كاساندر احدى بنات بريام .

وفي خلال مأدبة ، قتلته بمساعدة ايجيست . وبدا أن نسل تييست تغلب نهائياً على نسل أتريه . مع ان الجيل التالي جاء بالويل والكوارث : فأورست ، ابن أغاممنون ، خلص من الجرائم التي لحقت بجريمة أبيه . ولما بلغ سن الرشد ، تلقى من أبولون ايعازاً بالثأر لأغاممنون . فاصطحب صديقه بيلاد ، وغادر الى أرغوس فقتل ايجيست وكليتمنستر . واذ هو قاتل أمه ، لاحقته الارينيات حتى راح يضل في كل اليونان . أخيراً ، وفي اثينا ، مثُل أمام المحكمة ، وكان الحكم صعباً ، وانقسمت أصوات القضاة ، لكنّ الإلهة أثينا ، الكائنت تترأس المحكمة ، ضمت صوتها الى أصوات المطالبين بالصفح ، وبُرىء أورست . انما اضطر الى الابتعاد

كثيراً . وتظهره الأسطورة في توريد ، قرب أخته . وبعدما تعرف واحدهما على الآخر ، في صورة مأساوية ، قررا العودة الى اليونان وحملا معهما تمثال أرتميس السحري الذي كانت كاهنته ايفجيني . وبقي أورست وقتاً طويلاً ملك أرغوس ، ويقول الرومان ان رماده موجود في عمق الكابيتول ، تحت هيكل زُحل .

وهكذا ، تغلبت سلالة أتريه نهائياً على سلالة تييست .

أبرز « العودات » على الإطلاق ، عودة أوليس . وهي موسّعة التفصيل في ملحمة «الأوديسية». ولكن، هنا أيضاً، تهمل الملحمة الشعرية الهوميرية عدداً من التقاليد والمقاطع وصلتنا من مكان آخر ، ومصادر أخرى .

أوليس ، من أبيه لايرت ، متحدر من آيلوس ، وهو يعتبر هرمس من سلالة أمه . وثمة تقليد منفصل يقول ان أمه ، قبل ان يتزوجها لايرت ، كانت مع سيزيف ، أكثر البشر دهاء . وولد أوليس في جزيرة ايتاك المحاذية لكورفو ، حيث خلف أباه حين انتقل الى جبل بعيد متخلياً عن وظائفه ومهماته في الحكم .

وكان أوليس بين الذين تقدموا لطلب يد ايلين ، لكنه سرعان ما انسحب من ذلك ، وتزوج بينيلوب ، وهي برسييدية ، ونسيبة كليتمنستر وايلين . ومن هذا الزواج ، ولد طفل هو تيلماك . ولدى خطف ايلين ، اذا بأوليس ـ المرتبط بقسَمه مع سائر المتقدمين لطلب ايلين ـ يضطر الى الإشتراك في الحملة ضد طروادة . وفي هذه الحملة ، كان هو المسؤول عن جميع المهمات الدقيقة في الجيش الآخيّ : من رسل وعمليات إستقصاء وقرصنة وحيل

حرب ، حتى الخيانة في كل بساطة ، وحتى انه ، عند اللحظة الحرجة ، في آخر الحرب ، ونسبة سلاح آشيل الى سلاح الإغريق ، مما سبب خسارة كبرى للعدو ، سئل أسرى طرواديون فأيدوا رأي أوليس . وهو الذي ، أيضاً ، خطف البالاديوم ، متسللاً الى المدينة . واليه يُنسب ايجاد الحصان الخشبي (حصان طروادة) وكل الخطة التي ادت الى الهجوم الأخير . وهو كان يأمر الطلقة بالإنطلاق من داخل الحصان ، اذ هو لم يكن يخشى تعرضه للخطر ، وهو في قلب المعركة ، بطل لا يُقهر . على ان مجده الحقيقي، يبدأ لدى عودته الى ايتاك .

ذلك ان أوليس ، بعد الإبحار من طروادة ، فرقت العاصفة البحرية بينه وبين سائر السفن . وكان معه ١٢ سفينة ، فرست جميعها في تراسيا ، في بلاد السيكون . وأثناء عملية قرصنة قام بها رجاله ، تصدوا للمدينة فلم يبقوا فيها الا على مارون ، كاهن ابولون ، وهو أهداهم ١٢ جرة من النبيذ الحلو القوي . على ان هجمة مضادة من السيكونيين ، أرغمت أوليس ورفاقه على الهرب في البحر . لكن ريح الشمال قذفتهم نحو سيتير ، وما هي حتى رسوا في بلاد أكلة اللوتس ، حيث كان لبعض رجاله ان يذوقوا اللوتس ويجدوه ثمرة سحرية اقتلعت عندهم كل رغبة في العودة. لكن أوليس أرغمهم عليها . ثمّ وصلت السفن الى بلاد الصقالبة . فنزل أوليس مع ١٢ رجل ودخلوا مغارة ، وكان معه جرة نبيذ . ووجدوا في المغارة أوعية حليب وجبنة . ولكن ، عندما دخل صاحب الأوعية ، معه قطيع من الغنم ، وجده الإغريق هائل الجسم ، وذا عين واحدة مدورة في وسط جبهته . وراح ذاك الصقلوب ، واسمه بوليفيم ، يسدّ باب المغارة ، تمهيداً لأكل الغرباء الذين وجدهم في مغارته . فقدم له أوليس خمراً ، فذاقه فوجده رائعاً واستزاد ، فداخ ونام عندها ، أخذ أوليس قضيباً حديدياً حمّره

على النار وفقأ به عين الصقلوب . وعند الصباح ، توصلوا الى فتح الباب وهربوا متسترين بجلود الأغنام .

ولـدى خلاصـه من الصقلـوب ، وصـل أوليس لدى إيول ، سيد الرياح ، الذي استقبله بحفاوة وسلمه قربة فيها جميع الرياح مضغوطة ، إلا النسيم الذي سيحمله الى اتياك . وفي الطريق ، لمح بحارته ناراً على قمم بلادهم ، أشعلها الرعيان ، لكن أوليس كان نام . واذ ظنواأن في القربة كنوز صاحبهم ، فتحوها فطارت جميع الرياح المضغوطة . عندها ، اتجهت السفن الى الاتجاه المعـاكس ، مما أوصلهـا في اليوم التـالي لدى ايول من جديد . لكن هذاالأخير رفض استقبال أوليس ثانية . وكان الآلهة أبـدوا رغبتهـم في عدم رجـوع أوليس الى وطنـه . ولـم يعـد ايول يستـطيع مساعدته . فعاد أوليس ، حزيناً ، الى البحر مجدداً . وما هي حتى رسـا لدى الليستريغونيين ، وهم من أكلة لحوم البشر . وتكسرت سفن أوليس جميعها الا التي تقلّه . فتوجه نحو الشاطىء الايطالي وصولاً الى جزيرة آيا (وهي رأس قمة شيرشيو الداخل في البحر) ، في بلاد الساحرة سيرسيه . وكان لهـذه ، عادة هيولانية أن تقلـب جميع زوار بلادهـا الاجانـب الى حيوانـات . وهـو هذا قدر بعض من رجـال أوليس ، الـذي حار كيف يخلصهم ، فظهر له هرمس وأعطاه عشبة تحميه من السحر والتعـاويذ . وبهذا السلاح ، اضطرت سيرسيه أن تعيد له رجاله ، وأمضى معها عاماً كاملاً . وحين تركها ، كان ترك لها ولداً هو تيليفونوس (أي الذي ولد في البعيد) .

وكانت سيرسيه نصحت صديقها الذهاب الى بلاد السيميريين لمراجعة روح العراف تيريزياس ، وهو قائم من بين الأموات ، فأبلغ أوليس انـه

سيعود الى بلاده ، وحده وفي مركب غريب عن بلاده . بعدها ، عاد ، على كتفه مجذاف ، باحثاً عن شعب يجهل الملاحة البحرية حيث يقدم تضحية لبوزيدون ، ويموت في سن متقدمة ، وسط سعادة كبيرة ، بعيداً عن البحر . فمرّ على طول صخور جنيات البحر ، وتعلق بالصاري ليصمد امام جاذبية غنائهن . وفي طريقه بين شاريبو وسكيلا ، فقد أيضاً عدة بحارة اكلتهم الحيتان ، الى أن بلغ جزيرة ترينـاسيا حيث كانت ترعى عجول الشمس ، وهي مقدسة ومحرم مسّها . ثمّ هدأ البحر ، وكانت المؤونة انقطعت من الجزيرة . فصبر البحارة بعض الوقت ، لكنهم لم يعودوا يتحملون ، فغافلوا أوليس في غفوته واكلوا أحد العجول ، مما سبب ضياعهم . ولما عادوا ليكملوا رحلتهم البحرية ، هبت عاصفة قوية ، ونزلت صاعقة زوس عليهم فحطمت سفينتهم . ولم ينج منهم سوى أوليس الذي تمسك بإحدى قطع السفينة . وبقي متأرجحاً تسعة ايام على الموج ، الى أن وصل على الرمق الأخير الى جزيرة كاليبسو (هي على الأرجح عند الشاطئ المغربي مقابل جبل طارق) . وهناك استقبلته حورية ما لبثت أن عشقته ، وأبقته الى جانبها عشر سنوات . أخيراً ، وعلى وساطة من أتينا (الكانت تحمي أوليس) أرسل زوس الى جزيرة كاليبسو أمر الإفراج عنه . فابتنى أوليس عوامة ابحر بها صوب الشرق . وما كاد يقترب من بلاده ، حتى اعترضه بوزيدون يفرض عليه تجربة جديدة : هبت عاصفة بحرية كسرت عوامة أوليس ووصل على الرمق الاخير ، عارياً ، الى جزيرة الفياسيين (جزيرة كورفو) ، متعباً حتى الإعياء . فنام في حرجة ذات أشجار قليلة . وأفاق على ضجة أصوات وضحكات من جمع صبايا . وكانت تلك نوزيكا (ابنة الملك ألسينوس) وخادماتها ، وكن اتين يغسلن ثيابهن ويلعبن على ضفاف المياه . وبفضلهن ، توصل أوليس

الى بلوغ قصر الملك ، الذي استقبله في حفاوة ، وأمّن له طريق العودة الى بلاده . واذا بسفينة فياسية تحمله ، وهو نائم ، الى ساحل ايتاك وتترك حده جواهر كثيرة . واذ استفاق ، قرر أوليس عدم الرجوع فوراً الى القصر . فذهب أولاً الى أوميه ، قائد رعيان خنازيره ، فعرفه عن نفسه ، ووضع خطة لإستعادة السلطة . في غيابه ، جاء عدد من الجبران ، من ١٠٨ أشخاص ، واستقروا في بيته ، ملتهمين ما فيه ، ومرغمين بينيلوب على إختيار أحدهم زوجاً لها . أما هي فكانت تقاوم متحججة بخياطة كفن للايرت ، وكانت تخرب في الليل ما تحيكه في النهار . ولكن حيلتها انكشفت ، وأرغمها المحتلون على الإختيار .

أما أوليس ، وبمساعدة تيلماك ، فبلغ القصر في ثياب شحاذ ، ثمّ تأكد من سلاحه ، وتمسك بقوسه ، وراح يرمي بسهامه جميع الشباب ، في أثناء مأدبة . وفي اليوم التالي ، اعترض أهالي الضحايا ، لكن اتينا تدخلت من جديد ، وعاد الهدوء الى اتياك .

هذه هي الرواية الهوميرية .

لكن للمغامرة فصولاً أخرى ، ملصقة بتنبؤ تيريزياس . منها وجود أوليس في ايبير ، في بلاد التيسبروتيين ، حيث ملكة البلاد كاليديسيه عرضت عليه ملكها إذا هو بقي بجانبها . فقبل أوليس ، وعندما ماتت ، ترك البلاد وعاد الى ايتاك . وثمة رواية أخرى عنه في ايتوليا ، قرب تواس (ابن اندرامون) وفي ايطاليا حيث قيل انه اشترك مع انييه في تأسيس روما . وفي كلتا الحالتين ، يبدو ان التقاليد الشعبية الإيطالية تبنت مغامرات أوليس منذ زمن بعيد ، وخاصة لدى الاتروسكيين حيث حمل اسم « نانوس » الذي يعني في لغتهم : التائه .

الى جانب هذه العصور الملحمية ، بل على نقيضها تبرز مغامرات هيراكليس وفتوحاته مجمّعاً تتطابق فيه عناصر متنوعة ، بدءاً من الحكايات الفولكورية المشابهة لما في العصور التي تحدثنا عنها (وخاصة عصر أوليس) ووصولاً الى أساطير تبحث في مسببات ذات طابع ديني . فهيراكليس هو السيد المرتبط فيه الدوريون ، انما اسطورته ليست بالضرورة دورية . بل هي تنتسب الى اليونان الآكية والميسانية . فمن حيث سلالته ، هيراكليس أرجي اذ ان أمه ، « ألكمان » ، وأباه البشري انفيتريون ، هما برسييديان . لكنه لم يولد في تيرينت ، مع ان عائلته أصلها من هذه المدينة ، والأسطورة تنسبه اليها . وبعدما انفيتريون قتل عن غير قصد عمّه (والد زوجته) الكتريون ، اضطر الى الفرار نحو ثيبا . وهناك ، فيما كان منشغلاً بحملة ضدّ التيليبسويين ، حل زوس محلّه في مخدع « ألكمان » ، في ليلة أطول من كل ليلة ثلاث مرات ، واستولدها طفلاً . ولدى عودة انفيتريون ، استولدها هو الآخر طفلاً . وولد الطفلان معاً : هيراكليس (ابن زوس) وايفيكليس (ابن انفيتريون) . .

ومن فرحته ، لم يتحفظ زوس ، فصرح مرة ، بُعيد ولادة هيراكليس ، ان « الطفل الذي يولد في سلالة البرسيديين ، سيحكم ارغوس » . فكان من هيرا ، حسودة ، أن أخرت ولادة الطفل ، فيما تمت ، قبل أوانها ، ولادة ابن عمه اوريستيه ، ابن ستينلوس . من هنا ان أوريستيه ولد في الشهر السابع ، فيما هيراكليس في العاشر . وظلّ هذا الآخير ، اذ هو مرتبط بحياة زوس ، خادماً لأوريستيه طوال حياته .

وحين بلغ الطفل شهره الثامن ، حاولت هيرا التخلص منه ، فأدخلت الى غرفته حيّتين ، فهب الطفل في سريره وخنقهما . ونشأ هيراكليس وفق

تقاليد التربية الهيلينية (اليونانية القديمة) . وكان معلمه ، الموسيقي لينوس ، ليلقنه المبادىء الأولى . لكن التلميذ كان غير منضبط ، ومتسرعاً ، وفيما كان لينوس ذات يوم يحاول تصحيح أحد أخطائه ، تناول هيراكليس القيثارة ، وحطّم بها رأس معلمه . وقرر انفيتريون ترك ولده يربى في الحقول والجبال ، مسؤولاً عن القطعان . ولما بلغ الثامنة عشرة ، وكان أصاب قامة غير طبيعية (من أربع أذرع وقدم) ، قتل أسد سيثرون ، وكان ذلك أول أفعاله ، نفذه لرغبة الملك تسبيوس ، وخلال كل وقت مطاردته الأسد كان ينام في قصر الملك . وكانت لتسبيوس خمسون بنتاً ، تعمد ايفاد أحداهن كل ليلة الى مخدع البطل ، حتى أنهك وصار يحس بنفسه ينام كل ليلة مع البنت نفسها . ورزق خمسين ولداً ، هم التسبياديون الذين ، في ما بعد ، سيستعمرون سردينيا .

ولدى عودته من قتل الأسد ، خلّص المدينة (ثيبا) من جزية كانت فرضتها عليها مدينة أورمان . وفي المعركة ، قتل الفيتريون قرب ولده ومكافأة له ، زوّج كريون ملك ثيبا ، ابنته البكر ، ميغارا ، من هيراكليس ، فرزقت عدة أطفال ، ما لبث والدهم ، مضروباً بمس من جنون صعقته به هيرا ، أن قتلهم جميعهم . ولما ثاب الى رشده صُعِقَ من جريمته ، فتخلى عن هيرا ، وعلى أوامر الإلهة ، وضع نفسه في خدمة أوريستيه ، التي فرضت عليه تباعاً ١٢ مهمة . كان عليه ، أولاً التخلص في نيميا من الأسد الكان يعيث هولاً ولا من يقهره . فخنقه هيراكليس بكلتا يديه وسلخه ولبس جلده ، واتخذ من رأسه خوذة . ولشدة هلعه أمر أوريستيه لدى رؤيته بقايا الأسد ، الا يدخل بعدها هيراكليس الى المدينة ، وأوعز إليه بترك غنمه عند المداخل .

بعدها ، كان عليه قتل افعوان ليرن ذي السبعة الرؤوس الكانت تعود كلما قتلها البطل . ثمّ ساعده ابن أخيه ايولاوس ، ابن ايفيكليس ، فقطع هيراكليس جميع الرؤوس وحرق الجلد مكانها فلم تعد تطلع .

المهمة الثالثة كانت في إعادة خنزير بري حياً ، من قمة ايريمانت . طارده هيراكليس في الثلج ، فأنهكه ثمّ تمكن منه . وحين رأى اوريستيه الحيوان ، هرع يختبىء في جرة برونزية ، عند إحدى زوايا القصر ، لشدة خوفه .

بعدها ، اشتهى أوريستيه الظبية المقدسة التي على قمة سيرينيا . وهي كانت سريعة العدو ذهبية القرون ، كرستها الحوريةاتايجيت الى أرتميس . فطاردها هيراكليس عاماً كاملاً دون أن يبلغها . وأخيراً جرحها بسهمه خفيفاً فتمكن منها .

وبعد . . . حول بحيرة ستنفال ، في اركاديا ، كانت غابة كثيفة ، التجأت اليها العصافير ذات مرة من غزوة ذئاب ، وتكاثرت في شكل مدهش . واذ كانت تشكل خطراً على المناطق المجاورة ، أمر اوريستيه هيراكليس أن يبيد تلك العصافير . ولكي يخرجها جميعها من الغابة لجأ هيراكليس الى صناجات برونزية كانت أثينا أهدته اياها . فطرطق بها فخرجت العصافير خائفة من الجحر ، وقتلت جميعها بالأسهم المصيبة .

كان في ايليدا ، ملك اسمه أوجياس له قطعان كثيرة . وكان كثير الإهمال فتكاثر الروث في اصطبلاته . فكان أمر اوريستيه الى أوجياس ان ينظف اصطبلات الملك ، ففعل اذ حوّل اليها مياه نهرين : الالفيه والبينية .

أما المهمات الباقية ، فتقودنا خارج بيلوبونيز ، وتوسع إطار الأسطورة . منها القبض على ثور كريت ، وهو الكان خطف اورب اذ

استعار شكله زوس . وهو الكان جنّ وبات يثير خطراً في الجزيرة . فاعتقله هيراكليس وعاد الى اليونان على ظهره ، وسلّمه الى اوريستيهالذي اهداه الى هيرا فرفضته ، وأطلق الثور فعاد الى بلاد الاتيك حيث اعتقل على يد تيزيه نهائياً .

العمل الثامن ، لهيراكليس انـه حمـل الملك ديوميد (ملك تراس) الى حيواناته لأنه كان يغذّي انثى خيله باللحم البشري .

وكانت ادميتيه ، ابنة اوريستيه ، تشتهي حيازة حزام ملكة الأمازون ، وهي قبيلة من النساء المحاربات يعشـن في عمـق آسيا ، وهـن من الإلـه آريس . وكان على هيراكليس تنفيذ رغبة أدميتيه ، فقبلت ايبوليتيه الملكة اعطاءه الحزام ، لكن صراعاً قوياً وقع بين القبيلة ومرافقـي هـيراكليس ، فظنّ هذا الأخير انه تعرض لخيانة ، فقتل الملكة .

وتدريجياً ، أخضع اوريستيه خادمه هـيراكليس لمهمات أقسى . فأمـره بجلب ثيران جيريون ابن كريزايور وأحد أحفاد ميدوز ، وكانت له قطعان كثيرة يحرسها راعيه اوريتيون في جزيرة ايريتيا الحمراء ، في بلاد الغرب . وكانت الصعوبة في اجتياز الأوقيانوس . فطلب هيراكليس من الشمس ، الـكأس التـي لهـا أن تحملـه كل مســاء ، فيعبـر الى الشرق . فرضيت الشمس ، ووصل هيراكليس الى بلاد جيريون ، فقتـل أوريتيون وكلبـه أورتروس وعاد قائداً أمامه القطيع ، وحول هذه العودة، حيكت مغامرات كثيرة لتفسير دقائق محلية ، منها أن البطل عندها أقام عن ضفتي مضيق جبل طارق العمودين اللذين سمّيا لاحقاً « عمودي هرقل » . لكنه فيما كان يجتاز بلاد الليغوريين (شمالي إيطاليا) ، هاجمـه لصـوص ، فاضطـر زوس ، لتخليصه ، أن يرسل مطراً من الحجارة ما زالـت حتـى اليوم على أرض

الكرو (قريباً من الرون) . وأكمل هيراكليس رحلته على شواطىء البحر التيرينّي . وذات مساء ، وجد نفسه على ضفاف التيبر ، في حيثما اقيمت روما بعد زمن . فكان من لص يدعى كاكوس أن سرق منه بعضاً من قطيعه واخفاه في مغارة من جبل أفانتان . لكن هيراكليس قتله وأسس ، ذكرىً لانتصاره ، المذبح الكبير لتقام عليه مراسيم عبادته . وفي نهاية رحلتـه ، سلّم البطل القطيع الى اوريستيه الذي قدمه ذبيحة لهيرا .

بعدها ، تلقى هيراكليس أمر أن يذهـب الى الجحيم ويعـود بالكلـب سربير ، وهو من ثلاثة رؤوس ويحرس مدخل مملكة الموتى . وبعدها تدرّب على اسرار ايلوزيس ، نزل الى العالم السفلي من باب الجحيم الذي يفتح على رأس تينار ، يقـوده هرمس مرشـداً ودليلاً بنـاء على أوامـر زوس . وهناك ، التقى موتى بارزين ، منهم ميلياغر ، بطل كاليدون الكان مات حديثاً ، وطلب منه أخته ديجانير . فوعده هيراكليس أن يتزوجهـا حالـم يعود الى عالم الأحياء . وأخيراً ، تحكم من سربير وعـاد الى أرغـوس . ولـدى رؤية الكلـب الهائـل ، خاف اوريسـتيه ورفض تلقيه . فأعـاده هيراكليس من حيث جلبه .

المهمـة الثـانية عشرة والأخـيرة ، كانـت في قطف تفـاح ذهبـي كانـت الهسبيريديات (بنات المساء) يحرسنها في حديقة رائعة ، يساعدهن تنين هائل . ويوم عرس زوس وهيرا ، قدّمت له الأرض هذه الهدية ، ووجدتها الإلهة جميلة حتى أنها زرعتها في حديقتها قريباً من قمة أطلس .

بدأ هيراكليس يتحرى عن الطريق ، فعلم ان الإله البحري نيريه وحده يمكنه ارشاده ، لكنه لم يقبل في سهولـة فأرغمـه هـيراكليس على ذلك . فاجتاز مصر حيث قتل الملك بوزيريس الكان يقتـل الغربـاء . ثمّ مرّ في

الجزيرة العربية وعاد من حيث أتى ، على كأس الشمس ، ونزل على تخوم القوقاز ، وأفاد من ذلك ليحرر بروميتيه بقتل النسر الكان يعذبه . ووفاء لذلك علّمه العملاق الكبير أن عليه قطف التفاح الذهبي بواسطة أطلس . وبلغ هيراكليس أخيراً بلاد الهسبيريديات وتقدم من أطلس الكان يحمل السماء على كتفيه (وهو هذا عقاب زوس الذي طرده منّ الاولمب مع اخوته) وعرض عليه أن يبقى مكانه فيما يذهب أطلس الى قطف التفاح الذهبي . فَقَبِلَ هذا الأخير ، ولما عاد ، وجد أن هيراكليس كان حازماً في تبوؤ المنصب ، فلم يعد يريد استرداد منصبه . وأوهم هيراكليس أطلس انه قَبِل ، وطلب من هذا الأخير أن يضع له مخدة تحت كتفه . فانصاع العملاق الضخم ، واذ هو يفعل ، هرب هيراكليس ، وبلغ اوريستيه فأعطاه التفاحات الذهبية فحار ما يفعل بها وأعادها الى البطل الذي أهداها الى أثينا فحملتها من جديد الى الحديقة الرائعة .

الى هذه الأعمال ، قام هيراكليس بعدد من المآثر . وهو ، مع بعض رفاقه ، احتل طروادة عقاباً لحنث باليمين من ملكها لاوميدون ، فحارب سبارطة ، وبيلوس الميسيني ، وفي تيساليا ، حارب اللابيتيين لصالح الملك آيجبميوس . ثمّ عاد الى الجحيم مرة أخرى بحثاً عن ألسست التي ضحت بنفسها تحت لتطيل عمر زوجها أدميت . فحارب عدداً من حيوان السنتور (نصف بشري والآخر حصان) ، وقتلهم . لكن أهم ايامه ، كانت الأخيرة .

فهيراكليس كان تزوج ديجانير كما كان وعد ميلياغر وعاش فترة مع كاليدون . لكن القدر شاء ان يقتل هيراكليس ، صدفة ، مواطناً من البلاد ، فنفي . وراح يجول مع زوجته وابنه الصغير هيلّيوس . فوصلوا الى

ضفاف نهر ايفينوس حيث يسكن السنتور نيسوس ، الذي كان يقوم بدور المعدّي (قائد سفينة العبور) ، فعبر هيراكليس أولاً ، ثمّ ، مع عبور ديجانير ، حاول نيسوس اغتصابها ، فرماه هيراكليس بحربة ، فهمس لديجانير قبل أن يموت أنّ دمه هو شراب الحب . فصدقت ديجانير ذلك فحضنت الدم ظناً منها انها تستخدمه حين يخف حب زوجها لها . ولكن ، في حرب هيراكليس مع ملك أوكاليا ، اتخذ زوجها ، غنيمة ، ايوليه ابنة الملك . وعلمت ديجانير بذلك ، فلما طلب منها زوجها ثوباً جديداً ليقدمه تضحية لزوس على قمة أويتا ، أعطته الثوب المغمس بدم نيسوس . لكن هذا الدم لم يكن شراب الحب ، بل سماً يتغلغل في مسام الجسم ويؤلمه كثيراً . فاعتلى هيراكليس الجبل ورمى بنفسه فوق المحرقة التي ، اذ هي تحترق دوى رعد هائل ، وسُحب هيراكليس الى السماء ، حتى اذا بلغ مصاف الآلهة ، تصالح مع هيرا بعد إحتفال تظاهروا خلاله بإعلان ولادة البطل كما لو كان ولد من أحشاء أمه الإلهة .

وتنسب الأسطورة الى هيراكليس ستين ولداً ذكراً ، هم الهيراكليديون الذين عادوا في ما بعد إلى أرغوليد واجتاحوا البيلوبونيز وأقاموا فيه السيطرة الدورية .

ويبقى عصر تيزيه ، في بعض أحواله ، ضوءاً لعصر هيراكليس . فتيزيه هو بطل أثينا ، ومعاصر هيراكليس ، والاثينيون يؤكدون أنه كان صديقه . وتيزيه ينتسب الى العائلة المالكة في أثينا ، وهو من أبيه ايجيه الذي يعود نسبه الى اريكتيه ، ومن أمه آيترا التي يعود نسبها الى بيلوبس وصولاً الى سلالة طنطال . وهو ولد في تريزين حيث أمضى سنواته الأولى . ولما بلغ سن الرشد ، ذهب الى أثينا عن طريق برزخ كورنثيا ، فيما هيراكليس -

تكفيرا عن جريمة ارتكبها ـ كان خادم اونفال ملكة ليديا ، فيما الوحوش بدأوا يتكاثرون في العالم . وكان البرزخ يعج باللصوص ، فقتلهم تيزيه الواحد بعد الآخر ، وحين بلغ أثينا ، كان ايجيه في الحكم لدى الساحرة ميديا التي وعدته أن تلد له . ولم يتعرف ايجيه في البدء على ولده ، وانساق في أمر ميديا ان يقتل هذا الغريب الطارىء . واذ راح يسمم له ، عرفه فجأة ، من السيف الكان يحمله . وراحت ميديا الى المنفى .

ويروى أيضاً انها حاولت أماتته بإرساله يقتل ثور ماراتون الكان حمله هيراكليس من كريت . لكن تيزيه دجن الحيوان وقدمه ضحية الى ابولون . وبعد أن تم التعرف عليه رسمياً ، تصارع مع أنسباثه البالانتيديين الكانوا يطمعون بالعرش ، ثمّ انتقل الى كريت ليحرر بلاده من الجزية التي كان يفرضها عليها مينوس . فهذا الأخير ، إثر مقتل ابنه اندروجيه في بلاد الأتيك ، فرض على الاثينيين ، كل تسع سنوات ، إطلاق سبع صبايا وسبعة شباب . وكانت الضريبة تُرفَع الى المينوتور ، (وحش نصفه إنسان والآخر ثور) ولده ثور من بازيفاييه زوجة المللك مينوس . وكان المينوتور مأسوراً في دوامة صعبة المخرج . فأبحر تيزيه على سفينة سوداء الأشرعة ، مع الضحايا ، ووعد أباه ، إذا عاد منتصراً ، أن يرفع أشرعة بيضاء .

وفي كريت ، أُسر تيزيه في هذه الدوامة ، لكنه رأته آريان يدخلها ، وهي إحدى بنات مينوس ، علقت تيزيه ، فأعطته كبة خيطان لكي يعرف كيف يخرج من المتاهة ، واشترطت عليه أن يتزوجها لدى خروجه . وهكذا كان ، بعدما قتل الوحش ، ووصلا هو وآريان عند المساء الى جزيرة ناكسوس . فنامت آريان على رمال الشاطىء ، ولما صحت كان تيزيه رحل . ويقال أن ديونيسوس أمره بذلك ليمكنه خطف المرأة الكان يحبها .

ولحزنه من فقدانه آريان ، نسي رفع الأشرعة البيضاء ، ورأى أبـوه ، من أعلى الاكروبول ، السفن عائدة بأشرعتها السوداء فظن أن ابنه قُتِل ، فرمى بنفسه من أعلى صخور الشاطىء ومات .

وإذ صار تيزيه ملكاً ، جمع جميع سكان الاتيك في مدينة واحدة ، وكانوا موزعين في عدة ضياع . وأقام الاعياد الكبيرة ، وصك قطع النقود ، ونظّم المدينة . وشنّ حرباً على قوم الامـازون ، الهاجمـوا بلاد الأتيك ، ودعـم السبعة القواد الذين يحاربون ضد ثيبا ، ودافع عن أوديب الكان التيبيون يريدون ارجاعه اليهم بالقوة ، على رغبة من أحد العرافين ، وظهر تيزيه حامي العدالة والدساتير الإلهية . وما الا حادثة واحدة اظهرته أقل شأناً ، وهي عندما خطف ايلين وكانت بعد صغـيرة ، وأسرهـا في بلاد الأتيك ، لينتظر بلوغها سن الزواج . ثمّ ، وبمساعدة صديقة بيريتوس ، ذهب الى الجحيم ، يخطف برسيفون الكان بيريتوس يحب الزواج منها . وهنـاك ، اسرهما هادس ، باجلاسهما على كرسي سحرية لم يعودا يستطيعان القيام عنها . وفي النهاية ، على رجاء من هيراكليس ، ارتضى هادس اطلاق تيزيه انما ابقى بيريتوس محتجزاً .

ولدى عودته الى أثينا ، لم يلبث تيزيه أن طردته ثورة عارمة . فانسحب الى سكيروس حيث مات . وفي ما بعـد ، ايام الحـروب الميدية ، وجـد سيمون رفاته وأقام لها في أثينا مدفناً على جمال وأبهة .

الفصل الخامس

حياة الأساطير

كلما عالجنا أسطورة اغريقية ، نجد نصوصها ذات عدد كبير من المتغيرات ، ونجدها ، حسب الصورة ، تتغير وتتبدل . ذلك أن الأساطير ، من جذورها ، كانت موضوع عمل دائب لم يتوقف . انها ، اذن ، « عاشت » ، بكل ما في الحياة من تبدل وتغير وتطور مع الزمن ، ومع سيرورة الفكر القديم وصولاً الى اليوم ، دون أن تعبّر دائماً عن الحقيقة الواحدة . وفي شكل عام ، يمكن القبول (مع كل ما يحمله هذا « العام » من حصر) بأن الأساطير الهيلينية (اليونانية القديمة) اجتازت ـ بعد فترة تغيرها ـ ثلاثة أزمنة مهمة : العصر الملحمي ، العصر المأساوي ، والعصر الفلسفي أو « السوفسطائي » . ولا يمكننا في أي زمن ، اسباغ كلمة « بدائي » على شكلها . فالأسطورة الإغريقية ، نجدها دائماً تهيؤاً معقداً ، كما نجد أن الفكرة عنها تكونت من زمن بعيد ، وراحت تتبدل مع الزمن .

نبدأ بالزمن الأول : العصر الملحمي .

إنّ عصراً ملحمياً (كما رواية الحرب التي جمعت الآكيين والفريجيين في طروادة) يحوي حكماً نواة تاريخية . والمكتشفات التي وجدت في طروادة ،

تثبت أن الحضارة الطر وادية حقيقة واقعة ، وتثبت وجود عدة مدن متعاقبة ـ على قمة هيسارليك ـ إحداها ، على الأقل ، دمرها العنف . لكنّ هذا المعطى الأولي (صراع مدينة فريجية ضد مجتاحين من الغرب) لم يلبث أن تعقّد . بل هو تجزأ الى مجموعة تفاصيل كلٌ منها أدى الى تضخيات وتفسيرات عديدة . منها ، مثلاً ، أن الجيوش المعنية أحصيت ، وكلٌ من مجاميعها وضع في بوتقة متوقعة ومفترضة ، وفق التقاليد الملائمة لكل مدينة افترضت أصلية . ووجود هذا الجيش يبرره نص خاص ، يعود الى عصور مختلفة الإفتراضات .

المهم ، أن « العصر » في تكونه التدريجي ، كان يصبح كمية من المعطيات تختُصر فيها حالة حضارية كاملة . لكن العمل لم يتوقف عند هذا الحد . كان يلزم مبرر للحرب نفسها . فكان تخيل هذا السبب المبرر ، في خطف امرأة ، ارتؤي ان تكون هيلين ، التي تبدو انها في الأساس ، الهة من العصر قبل الهيليني (اي الوهات السحر والقمر والبحر) لكن المجتاحين الآكيين « انزلوها » الى رتبة بطلة . وهكذا ، زُوّدت ايلين بأصل ونسب ، تعود معها الى الأسياد الميسانيين . وقصة زواجها من مينيلاس (عبادتها كانت جد ناشطة في لاكونيا) ، تفسر انها لم تبق في ارغوليد وان حدثاً أوهى من اختطافها اقام ضد المذنب جميع الملوك والمدن . من هنا ، ولد المقطع الوارد في الخطاب الملقى قبل خطبة الصبية ، والذي يختصر كل النبل الآكي .

على أن مسائل أخرى تبرز ، حتى قبل سياق المغامرة : لماذا ، مثلاً ، صمدت المدينة طويلاً وهي محاصرة ؟ ولماذا ، في النهاية ، دخلها المهاجمون ؟ يقال إن القدر وضع لنصرة الإغريق ظروفاً ملائمة لم

يكتشفوها الا في ما بعد . هنا ، بدأت تدريجياً ، ترتسم صورة هيلينوس ، ابن بريام، الذي رعاه، الهيأ، أبولون نفسه، والذي كان له في ما بعد أن يعلّم الآكيين كيف الوصول الى بلاده . ولكن لهذه الخيانة العظمى تفسيرات ، أهمها أن هيلينوس خذله قومه . فبعد موت باريس ، أراد الزواج من هيلين ، لكنهم حرموه منها ليزوجوها دييفوب . فحنق ، وانسحب الى الجبل حيث قبضت عليه جماعة من الآكيين ولم يبدِ لهم كبير مقاومة . وفي هذا ، كما يبدو واضحاً ، عمل خيال يفترض لنفسه صعوبات يحلّها مستعيناً بحلول مستمدة من الحكايات الشعبية .

هذه العناصر الشعبية ، متوفرة في كل مكان ، اي ليس في العصور البطولية فقط ، وانما كذلك في الأساطير المواكبة للآلهة . كما هرمس سارقاً ثيران أخيه جاراً اياها من أذنابها ليضلل الطريق . فهذه حكاية شعبية بحتة . فالحيلة نفسها تعود في فقرة كاكوس حين يسرق لص بعض ثيران جيريون لصالح هيراكليس . وانما هذه العناصر الفولكلورية المتغيرة ، هي التي تعطي للأساطير شكلها شبه الموحّد . وهذه أريان ، اذ تركها تيزيه على ضفاف ناكسوس ، تذكر بميديه التي خانها جاسون في كورنث . وكلتا البطلتين ، خلصتا ، ما سوى بالحب ، الغريب الشاب الذي أتى في صورة خصم . وهما ساعدتاه على ابيهما ، لا تطلبان الا الفرار معه . وهذه أيضاً قصة كومايتو ابنة الملك بتيريلاس ، التي ، من حبها لأنفيتريون ، قصت عن شعر ابيها الشعرة الذهبية الكانت تجعل عصمته ومناعته . وكذلك هي ، جريمة سكيلا ابنة نيسوس ملك ميغار ، التي أحبت مينوس . ومثلها قصة تاربيا التي أسرّت في روما لتاتيوس الوسيم بسر الطريق السري الى القلعة الكان يحميها أبوها .

وجميعهن ، بلا استثناء ، ينتمين الى سلسلة « حكايات المرضعات » ، التي تغذي اخبار الأساطير . وثمة أيضاً أخبار الحية أو الوحش الذي يحرس حديقة أو مغارة فيها كنز ، كما التفاح الذهبي للهسبيريديين ، أو الجزة الذهبية لجدي كولشيد . وثمة ايضاً نماذج أخرى عن هذه الكنوز ، لعل أبرزها ذهب قوس قزح المختفي في البعيد ، صوب الشرق . وثمة كذلك حكايات الأطفال الذين تغذيهم الحيوانات : كما تيليف ، ابن هيراكليس وظبيته ، وأسكاليبيوس ابن ابولون والبطل الشافي الذي غذته عنزة ، وسيكنوس ونعامته ، وكثيرون غيرهم ، حتى رومولوس وريموس اللذين غذتهما الذئبة في البلاط الروماني .

أكثر من هذا : القصص الشعبي ينسج بدوره أساطير ، انما دونما تفسير . فثمة دائماً ، في الأصل ، عنصر آخر تتمحور حوله تغييرات وتفسيرات . وهذه من المعطيات التاريخية التي تبرز في العصر الطروادي ، ومن المعطيات الجغرافية في عصر الارغونيين . حيث قسم كبير من رحلتهم البحرية ناجم عن رغبتهم في تفسير وجود معابد لاتينا (أو لسواها من الآلهات) حول حوض البحر الأبيض المتوسط . وكذلك ، ثمة أخبار عن تجوالات اينيه في بحر ايجيه وفي بحر سيسيليا ، مع معابد أفروديت المفروض أنه أسسها . و« رجوعات » عديدة ، بنيت على مجانسات في أسماء الأماكن : فكل موقع يدعى « تروپا » (وكان منها كثير في ايطاليا) يوحي بآثار مستوطنين طرواديين ، أو أسرى حملهم القادة الآكيون ودفعتهم العواصف السحرية الى تلك الشطوط . وجاء موضوع فولكلوري - عن السفن التي حرقتها الرهائن - فأكمل التفسير ، وهكذا ولدت أساطير كثيرة ذهبت أساسية ، ولم يبق على المفسر المعاصر الا تحليل المجانسة وهي الشاهد

الـوحيد على شعـــب قديم أو على هجـرة تذكرهـــا الأسطـــورة في جميع تفاصيلها .

في أمكنة أخرى ، قد تكون النواة الأصلية ، خاصية طقسية . ولافتٌ أن إلهة أرغوس الكبرى كانت هـيرا ، وان اسـم هـيراكليس مشتـق من اسمها . وهو ، حتما ، خادم لها . واذا كان صحيحاً أن هـيرا الآرجية ، كانت في البيلوبونيز الميسانية « سيدة الظبـاء » ، فمـن الطبيعـي أن أول وأقدم مآثر البطل ، كانت مع الأيائل والظباء ، وداخل حدود البيلوبونيز . وهو هذا ، ما أمكن اكتشافه ، في النص الكهنوتـي الـذي اضيفـت اليه عناصر أخرى ، بعضها تاريخي وثيق ، ولكن بعضها الآخر شعبي بحت .

هو هذا ، ما تمكن تسميته مرحلة ما قبل التاريخ ، في حياة الأساطير . لكن الملاحظ ، أنّ الوجوه الأسطورية ، منذ القدم ، اتخـذت واقعـاً حياً و « تأنسنت » . وفي الوقت نفسه ، كانت الأسطورة في توسعها الى ملحمة او رواية ، تحمل انطباعاً عن العالم ، وتكوّن شكلاً خاصاً من التجربة . فإنّ آشيل واغاممنون وهيلين ، مثلاً ، قد يكونـون سابقـين لفـكرة العصر الطروادي الأول . لكنهم لـم يقم لهم ذكر وكيان ، إلاّ حين دخلوا في عمق المغامرة . وهو هنا فضل هومير : انه رسم لأشيل شكلاً لازمه نهائياً . فهو : محارب . وفي مطلع حياته ، خُيّر بين حياة طويلة هانئة ، أو حياة قصيرة انما بطولية . فلم يتردد في الخيار ، وكان كل كيانه في هذا الخيار . من هنا ، كان يعرف انه سيموت شاباً ، لكنه كان يعرف قيمة ذاته ، وأنه مرصود على الخلود . واذ بعنفوانه وحسّه بما « يتوجب له » ، يدفعانه الى الثورة في وجه أغاممنون ، والى أن يعرض للخطر ، حين يرفض المحاربـة ، كل الجيش الاغريقي . وان كان على قوة ، فهو أيضا على حنو الشباب وما يحمله على

نسيان الاهانة : رغبته في الانتقام لباتروكل . وبدون شفقة ، شتم جثمان هكتور ، لكنه عاد فبكى حين جاء بريام يأخذ الجثمان في احتفال مؤثر . وتماماً كما غناه هومير ، صار آشيل موضع إلهام لمواضيع أخرى في كل العصور القديمة ، يستلهم مثاله كثيرون كما الإسكندر وقيصر اللذان كان أمام ناظريهما حتى انهما كانا يريقان خمراً على قبره اكراماً له .

مع أن القصائد الهوميرية ، والملحمة عنده في شكل عام ، تهتم بسيرورة الحدث أكثر مما بنفسية الأشخاص . فهذه الأخيرة تنجم عن الحركة ، كما تنجم النِسب وطبيعة كل إلهة ، عن مقاطع نجدها فيها تتصرف بأي عمل . ولا يمكن ان نجرد هؤلاء الأشخاص عن الخرافة أو الأسطورة ، لنجدهم يعيشون وحدهم . من هنا ، نادراً ما كان الشاعر يحمل حكماً واعظاً . وهو لا يشترك في الصراع ، ولا يقضّه إلا اجاكس ابن أويليه ، محتقر الآلهة ، الذي مات في رأس كافاريه ، واللعنة في فمه . أما أوليس فهو مقبول دون تحفظ . وحيله الماكرة وخياناته وأكاذيبه ، لا تطغى على مآثره العسكرية ، فكلا الوجهين لديه ، شرعي مقبول . وما الا لاحقاً ، مع ظهور السوفسطائية (حوالى ق ٦ ق . م .) حتى بدأت تُطرح هذه المواضيع . عندها صار الأبطال الأسطوريون يخضعون لنقد معنوي وخلقي . وعندها صار يمكن التساؤل ان كان أوليس على حق في التسبب ـ استناداً إلى وشايات وشهادات كاذبة ـ بموت بالاميد لأن هذا الأخير عاكسه في الاشتراك بحرب طروادة . هكذا ، تصبح الأساطير هائلاً للنماذج والأمثال ، ويكون للسوفسطائي بروديكوس أن يتصور حكمته في هيراكليس ، إذ يصوره ، على مشارف مراهقته ، متخيراً الشر أم الخير .

هكذا ، تصبح الأسطورة ـ بشكلها روايات ملحمية ـ الوسيلة الفضلى

لتنشئة الخلقية . وفي مدارس اليونان القديمة ، كان الأولاد منذ سنواتهم الاولى يحفظون غيباً قصائد هومير التي يختار منها المعلم حكماً وعبراً سلوكية . وبهذا ، بقي هومير لأجيال عديدة متعاقبة ، « معلم الفكر » الأساسي . وحاول أفلاطون كسر هذا التقليد وهذه الطرائق التربوية ، معتبراً ان الأسطورة والشعراء يفسدون الفكر . لذلك طرد الشعراء من مدينته المثلى ، لأن الحقائق التي يحملونها لا تخضع لحكم العقل والمنطق ، بل تتوجه الى العواطف والقلب . لكن حملة أفلاطون لم تنجح ، وبقي الشعراء على أهميتهم وبقيت قراءتهم مدخلا الى الأساطير ، والتمرين الأول الذي يلاقيه التلاميذ .

ومع ظهور المأساة، ظهرت وجهة نظر جديدة. فالمأساة لم تعد سرداً، بل هي نوع من التأمل والغوص في مقطع منعزل . وهذا التأمل ، بدأ غنائياً ، فكانت القربى بين المدح التقريظي ، والمأساة ، والغنائية الترنيمية . ولكن ، لو كانت الملحمة منشدّة كلياً الى الحركة فالغنائية تنحو في الأساس الى الجمود . وهو هذا ما يميز المأساة الاشيلية المهمة : « بروميتيه موثوقاً » . فالثلاثية كلها ، انطباع واضح ـ ونكاد نقول تمجيداً ـ حول سر زوس . وفي مقابل الرؤية الهيزيودية (الكانت تظهر زوس مجتاحاً وبروميتيه مهزوماً ، كما هزم التيتانيون وسائر القوى الأولية في العالم) يقيم اشيل رؤية المصالحة . فانتصار زوس ليس نهائياً ان لم يتوصل الى إعادة الحق لأصحابه ، والا بقي الثالث بعد أورانوس وكرونوس ، ويواجه التهديد نفسه .

فالمسألة التي طرحها اشيل ، هي ، اذن ، لاهوتية بحتة . وهي في اكتشاف ظروف استمرارية زوس . واذا بكل ثلاثيته ، تدور حول مأساة

التوسط . فكما ان بروميتيه هو الوسيط بين هذه القوى الأولية والبشر ـ حين حمل لهم نار السماء ـ صار كذلك الوسيط بين هذه القوى نفسها وجيل الأولمبيين ، حين يخبر زوس بعراف غايا الذي انبأه بأن الولد الذي سيولد من تيتيس ، سيكون له يوماً أن يخلف أباه ، مما احاد الإله عن التفكير بوحدة تضبط سير القدر . بهذا ، أمكن زوس أن يخرج كرونوس والتيتانيين من سجن الترتار ، ووضعهم في جنة الصالحين ، أو في جزر السعداء حيث وجدوا مملكة ذات كون مرفه .

من هنا ، نجد ان الصراعات الكونية المريرة في العصور التيوغونية الأولى ، حيث كانت الغلبة للقوة الفظة ، انما تنتمي الى عصر كامل . فالإنطباع الإنساني « يؤنسن » الآلهة . وتصبح الأسطورة مع أشيل ـ وكذلك مع بندار ـ التعبير الأقوى عن الأمل والمثال . وليس علينا التساؤل اذا كان أشيل يؤمن ، أم لا ، بألوهية زوس وصراعاته بل وحتى وجوده نفسه . التساؤل هنا لا قيمة له . فالأسطورة تخلق جواً شعرياً ، ومعطى يقولب وفق الهوى ، ووفق الحقيقة المعيوشة داخلياً . فهذا هيزيود ـ وهو من عصر بروميتيه نفسه ـ كانت له قصة يائسة . فبروميتيه ، في نظر هيزيود ، كان فصل الانسان عن الإله . وكان حمل الى الكون نوعاً من « الخطيئة الأصلية » ، وقصم الوضع الإنساني من أساسه . أما اشيل ، فعلى العكس ، هو المنقذ الأبدي ، والثلاثية التي له ، كأنما هي الإنجيل .

هذا كله ، عن الزمن الأول : العصر الملحمي .

نصل الآن الى الزمن الثاني : العصر المأساوي .

ان مؤلفي المآسي ـ في حملهم الى المسرح مقاطع من العصور البطولية ـ

واجهوا مشاكل مشابهة . فالشاعر الملحمي ، إذ تحمله نشوة النص ، يغيب عن الوقائع الحقيقية التاريخية . وهو يتقبل مواقف ، حين تبرز في الواقع مع أشخاصها ، تبدو لا تتبدل . من هنا ما أسداه العصر الهرقلي الى « الإلياذة » ، في صورة فيلوكتيت ، ابن بويياس ملك ماليس ، وهو كان خدم هيراكليس باشعال محرقته على قمة أويتا . مكافأة له ، تلقى القوس والأسهم الإلهية ، وكان هو خلف هيراكليس ، ووريثه الصوفي . ولكن ، في الجزء الثاني من « الالياذة » نجد فيلوكتيت بين القادة المجتمعين في « الأوليس » ، اذ كان أبحر مع الاتريديين ورفاقهم ، انما ، لدى وصوله الى جزيرة كريزيه ، جارة ليمنوس ، حيث كان على القادة الآكيين تقديم تضحية ، لسعته حيّة . والتهب الجرح وتسمم مسبباً لفيلوكتيت اوجاعاً ذات صراخات مرعبة ونتن رهيب . وصار فيلوكتيت عبئاً خطراً على الجيش الآكي ، حتى تم التخلي عنه بناء على نصيحة أوليس . انما - يضيف هومير - بقيت ذكرى فيلوكتيت في بال الآكيين . لذلك ، كان تنبؤ العراف هيلينوس أن شرط القدر لانتصار الآكيين ، هو في امتلاك جيوش هيراكليس . والشعراء الملحميون الذين مجدوا السنوات الأخيرة من الحرب ، كما ليشيس واركتينوس ، كانوا يروون ان ديوميد ذهب باحثاً عن فيلوكتيت ، حتى وجده بدون صعوبة ، وأعاده فيما كان أوليس يعود الى سكيروس ومنها الى ترواد ، مع نيوبتوليم ابن أشيل ، وكان حضوره ضرورياً كما جيوش هيراكليس . وكان يمكن للملحمة ألاّ ترى في ذلك أية صعوبة . انما ، منطقياً ، كيف يمكن فيلوكتيت ، بعدما تخلى عنه الآكيون بلا شفقة ، وتركوه في جزيرة شبه قفراء ، وتفرق عنه رفاقه في السلاح ، أن يتقبل العرض في الرجوع الى مساعدتهم للتغلب في معركة هم أول المستفدين منها ؟ ألا يمكن له أن يرفض ؟ انه ، والحالة هذه ، يصبح شاهداً على

موقف خاسر من الآكيين ، وولدت المأساة من كون القدر وضع مصير الجيش كله في يد الذي تخلى عنه يوماً هذا الجيش . ومن النص الملحمي القديم ، يولد نزاع غير منتظر ، نزاع النفوس والإرادات .

كل هذا ، فهمه المؤلفون المسرحيون جيداً ، (وثلاثتهم : اشيل وسوفوكل واوريبيد كتب كل منهم مأساة حول فيلوكتيت) ، حتى انهم اختاروا أوليس ليقدم الى البطل التماس الآتريديين . وهكذا وقف الخصمان وجهاً لوجه : المسؤول عن التخلي ، وضحية هذا التخلي .

وكلٌ من أولئك الشعراء عالج الموضوع على طريقة تفكيره وعبقريته الشعرية : فاشيل لم يكترث لواقعية التفاصيل ، وأوريبيد تخيل وصول بعثة الى طروادة في الوقت نفسه ، وحمله خياله الى تصوير صراع يواجه أوليس والطرواديين ، يحكم فيه فيلوكتيت . أما سوفوكل ، فحمل الحركة الى صعيد آخر ، في إدخاله شخصية نيوبتوليم ، ليعطي زخم المأساة قوياً ، من خلال روح هذا الشاب الجدير ببنوة أشيل ، المشبع بالاستقامة والشرف . وهكذا ، من داخل الوطنية والشرف والشهامة ، يحافظ فيلوكتيت على سلاحه ، لو لم يظهر هيراكليس ليعطي رفيقه القديم الأمر بالعودة الى طروادة ليكتمل ما جاء في حكم القدر .

ونجد ، هكذا ، كيف مأساة سوفوكل (الوحيدة التي وصلتنا كاملة) ، هي ، أيضاً ، « انسنت » الأسطورة ، ومن هذه الزاوية ، هي تشكل مثالاً جيداً لهذا التحول الذي أوجده المؤلفون المسرحيون في رواياتهم الأسطورية .

لذلك ، من الخطأ الإعتقاد ان المعطيات التقليدية ليست سوى مدخل

للتعبير الفلسفي ، أو للتوجيه الخلقي . فالأساطير المأساوية ، حتى على المسرح ، تبقي ، من جذورها ، على مناخ العظمة الدينية التي من مميزات المأساة . ومهما تأنس البطل المأساوي ، وشارك في عواطف وآلام البشرية العادية ، فإنما هو يتحرك في عالم منفرد حيث كل شيء أقوى وأرهب و« نموذجي » . هكذا ، لا يعود أوديب ، فقط نموذج الجيل الملعون ، ومجرد حلقة في سلسلة المصائب التي تضرب أحفاد لايوس ، بل يصبح الصورة الخالدة للضحية البريئة تحت ضربات القدر فأوديب هو مأساة الإرادة العاجزة أمام نظام الكون الذي يسحقها . لكنه ، في الوقت نفسه ، نموذج ما يكونه التمزق الداخلي ، فلما حرم نفسه طوعياً من الحكم وحب الأقرباء وحتى نعمة البصر ، وترك بلاده ، كان يجد في وحدته حضور انتيغون ، ويرى ـ في عمق عتمته ـ السلام والهدوء مع الآلهة . وهكذا ، هو الملعون وبلية ثيبا ، يصبح ، في كولونا ، بطلاً حامياً وفاضلاً ، وتصبح له فضائل العذاب ، والاذعان للإرادة الإلهية ، اعمق وأخصب من جميع الثورات . وللتعبير عن ذلك ، اضطر سوفوكل الى تبديل المعطيات الأسطورية ، واستبدال مقطع بآخر ، أو تعبير بآخر ، حول هذه التجربة الوحيدة التي خاضها . معه ، اتخذت الأسطورة شكلاً ، ومن الطين غير الثابت الذي قدمته له التقاليد ، استطاع خلق أوديب خالد .

هذا العمل الأدبي ، (خاصة الخلقي أوعلى الأصح الإنساني) كان من نتيجته أن تعدلت الاساطير تعديلاً كاملاً . فثمة اشخاص كانوا مطمورين ، ظهروا بارزين فجأة . هذه ، مثلاً ، إيفيجيني ، وهي في الملحمة مجرد ضحية في أوليس ، تكتسي مع المؤلفين المسرحيين ، أهمية جديدة . فيتمحور حولها عصر كامل ، عناصره مستمدة من التقاليد الشعبية (الفولكلورية) أو الثقافية . من هنا نراها في توريدا ثمّ في بيلوبونيز .

حيث حضورها يبرر الطقوس المتوحشة لدى الإلهة ارتميس السبارطية ، في لاتبوم ، ثمّ في غابة نيمي حيث هي كاهنة « ديانا » الغابات .

إذن ، فتاريخ الأساطير لا يظهر تطوراً مستمراً ، اذ لكل اسطورة جذورها ، ومحطتها الملحمية ودرجتها المأساوية وعادة درجتها الفلسفية أو السوفسطائية . بل هي ، على العكس ، تعكس تأثيراً مستمراً لكل شكل على الشكل الآخر . فالأهمية الكبرى التي ، مثلاً ، للعصر الطروادي هي التي أمّنت الإستمرار والخلود للتقاليد المحلية المنسوبة الى هيلين وأورست وديوميد واينيه وسواهم . وهذا التصوير ينطبق خصوصاً على الأشكال التي اتخذتها هذه الأساطير في ايطاليا ، جنوبيّها خصوصاً ، حيث نجد آثار البطل الطروادي دون تلمس كيفية وصول بصماته الى هناك . وربما هذا الحضور يشهد أحياناً على هجرة أو استعمار قديمين ، وغالباً ما يكون مجرد تجانس وهضم من التقليد المحلي الذي تناغم مع العصر الطروادي الأشهر والأعظم .

بهذه الطريقة ، امتدت الأساطير الهيلينية البدائية الى كل قطاع الأبيض المتوسط ، حتى حدود العالم المعروف . وساعدتها طواعيتها على الانزراع في اينما كان . فالاغريق بلغوا حتى ايجاد تفسير أسطوري للآلهة الحيوانات المعبودة في مصر . كان ذلك ، أيام كان طيفون يلاحق زوس ، وكل الأولمبيين خانوا (إلاّ أثينا) والتجأوا الى رمال الصحراء في مصر العليا . وتأميناً لهم على حياتهم ، اتخذوا أشكال حيوانات . فصار هرمس كلباً ، وابولون طائراً مائياً . . . ودخلت أسطورة ايزيس تدريجياً في أسطورة غرام إيو وزوس . فبعدما صارت إيو على شكل عجلة ، التجأت الى ضفاف النيل حيث عبدت على هذا الشكل ، ويروى ان إبنها ايبافوس ، هو في

أساس السلالة الملكية المصرية ، مع نيلوس النهر الإله ، وفي أساس سلالة داناوس ، مجتاح بيلوبونيز ، في أساس سلالة قدموس وسائر ملوك سورية .

تدريجياً ، وخاصة بعد غزوات الإسكندر ، وبعد قيام الامبراطورية الرومانية ، اتخذ الفكر الأسطوري والديني في العالم القديم ، أشكالاً فرضها كتّاب الأساطير الهيلينيون . فليس في المنابع اللاتينية ، مثلاً ، أو اليونانية ، الخطوط الكبرى للدين الغولي أو الجرماني ، إلاّ تحت قناع الميتولوجيا الكلاسيكية . وفي روما نفسها ، كان جهد المؤرخين المعاصرين ، تجريد الآلهة والأساطير من وشاحها الهيليني ، وايجاد كيانات أولية أبعد من الخلق المصطنع ذي التأثير الاغريقي .

فبعد الزمن الأول (العصر الملحمي) ، والزمن الثاني (العصر المأساوي) ، نصل الآن الى الزمن الثالث : وهو العصر الفلسفي أو « السوفسطائي » .

فبعد القرن الثالث (ق . م .) ، حين طغت الفلسفة تدريجياً على الفكر اليوناني ، لم تنجُ الأساطير من هذا « الطغيان » . وكان الفكر السوفسطائي استخدمها قبل قرنين . ثمّ عاد فالتجأ الى محاكاتها ، انما في اطار مختلف . فالرواقيون ، مثلاً ، يستوحونها حول طبيعة العالم . وهم يرون الأسطورة ما سوى شكل متطور ورمزي للحقائق العقلانية . وزوس لم يعد المجتاح ولا قاهر التيتانيين ، بل صار معهم المبدأ المجرد للعقل ، المحرك الأول والغاية النهائية والكائن في ذاته ، ولم تعد المقاطع الأسطورية في عصره معتبرة الا على انها الأوقات الجدلية للمصير الشامل وكما ان الفكر الرواقي ينحو للوصول الى مفهوم توحيدي ، يتخذ زوس مكانة متصاعدة الأهمية ، على حساب باقي الآلهة .

وهنا تظهر اشتقاقات لفظية مترفة لتساعد الفلاسفة فإذا زوس هو النور ، تكون هيرا هي الهواء ، ويفسر العلم الرواقي كيف ان وحدة النور « اي النار الهيولانية » مع الهواء تولّد الحياة . ففي نظر الرواقيين ، تبدو الميتولوجيا حجماً هائلاً من الرموز ، على الفلاسفة حلّها .

وفي هذا ، كانت الفلسفة تلتقي العقائد الصوفية التي ، هي أيضاً ، حاولت انتزاع حقيقة خفية من قلب الأساطير . فهياكل المقابر في العصر الروماني ، تمثل غالباً ـ الى جانب رسم الميت ـ أشكال جنيات أو إلهات وحي ، أو مثلاً صورة انديميون ، الراعي الذي عشقته سيلينيه غيمة القمر ، وأغفته في رقاد أبدي .

جميع هذه الأشكال ، تجسد الأيمان بقدر مستقبلي . فربات الوحي يرمزن الى تناغم الكون الذي يعيش فيه السعداء . والجنيات يرمزن الى النشيد الالهي والموسيقى التي يولدها . بهذا ، تبعد في البال أسطورة «الأوديسية» القديمة . فالحوريات ، من عصافير مؤذية ، تحولن رسولات الأمل . وأضيفت معتقدات فلكية الى الموضوع الأسطوري التقليدي . واذا بأنديميون يذكرنا أنّ القمر هو رحلة النفوس التي تحررت من الجسد . ومغامرته هي رمز السعادة الأروع التي تصيب انساناً فتحمله ، فوق عذاب الموت ، وتضعه هانئاً في النعمة الأبدية .

على أن التفسيرات الرمزية أو الأسطورية لا تستنفد حياة الأساطير في ما سوى الحضارة الهيلينية الغاربة . فثمة عقول شكاكة ، أقل تأثراً بجمال هذه النصوص ، تأثرت خاصة بتدخل الظواهر فوق الطبيعية ، دائماً ، في الأساطير . وكان أصحاب هذه العقول يتساءلون ـ في نية طيبة ـ كيف يمكن

حدوث هذه الأحداث المجنونة . لذا ، تخيلوا ان هذه الأساطير هي روايات محوّرة لأحداث عادية حدثت فعلاً . فمثلاً : جاء في الأساطير ان بيرسيه خطف الصبية اندروماك بقتله الوحش الذي كان يرصدها . افلا يمكن ان تكون هذه ، قصة شاب أنقذ حبيبته ، في لحظة كان القراصنة سيخطفونها على الشاطىء ؟ فيكون عندها اسم المركب « الوحش » ، او « الحوت » ، وهو هذا ما يكون ولّد رواية هذه الأسطورة . أو مثلاً : جاء في الأساطير أن هيراكليس خنق أفعوان ليرن ذا الرؤوس التي تنبت . ويمكن أن تكون هذه ، رواية بطل كلِف بتجفيف مستنقع وبائي (تاريخياً كان ثمة مستنقع قرب ليرن) ، وكان عمله بغير فائدة لأن ينابيع صغيرة كثيرة كانت تصب في المستنقع باستمرار ، فلا يجف .

باليفاتوس ، وهو كاتب مجهول ، ترك بحثاً مطولاً في أمر هذه التفسيرات العقلانية للأساطير . وهي طبعاً ، لعبة عقلية . فالأساطير ، قطعاً ، لم تولد على هذا الشكل . وانه تحقير لأهميتها ، في اعتبارها مجرد تحوير لروايات من الواقع . ولكن ، يبقى ، ان هذا هو موقف العقلانيين وفلاسفة القرن الثامن عشر. وثمة كتاب فونتنيل « تاريخ العرافين » ، الذي لا يختلف منطق التفكير فيه عن نَفَس باليفاتوس .

الى كل هذا ، قام منحنى آخر في أواخر القرن الرابع (قبل المسيح) . وذلك مع فيلسوف يدعى ايفيمير ، كتب في تلك الحقبة رواية طويلة جاءت موحية للطبيعة الحقيقية لدى الآلهة والأبطال . وهو رأى أن الموضوع ، عن بشريين تألهوا ، وخاصة عن ملوك فاضلين حملهم اتباعهم الى هذه المرتبة . وكان همّ ايفيمير ، كما باليفاتوس ، « عقلنة » الأساطير بتجريدها من هالتها الجميلة . ولاقت هذه النظرية نجاحاً كبيراً .

فالابيقوريون الذين ، مثلاً ، كانوا ينكرون تدخل الآلهة في الشؤون البشرية ، وجدوا في الأساطير مادة لتفسيرات خلقية . وكان تريبتوليم أول « حاصد للغلال » استحق المجد الأبدي لهذه الغاية . وكان هيفايستوس الحداد الأول . وصار الكون الأسطوري محجماً الى النسب البشرية ، وغاب الجميل المدهش عن العالم . وكان هذا الموقف مغرياً حتى أنه في غير موقف ، بات حقيقة ثابتة . فالأسطورة نفسها تعترف أن اغاممنون كان حكم ميسان ، وكان في أرغوليد ، فعلاً ، نمط عبادة اغاممنون . وكان نمط آخر في سبارطة لعبادة مينيلاس ، وآخر لعبادة هيلين . من هنا أن النظرية الايفيميرية كانت نوعاً من تعميم واقع حادث وثابت . ولم يكن مطروحاً سؤال إن كان الواقع ذاك ، يُقرأ في نظرة أخرى ، وان لم يكن نمط العبادة المسبق ، هو الذي ولّد البطل في ما بعد ، وان لم يكن هذاالبطل حصيلة وحلة بين شيطان وشخص تاريخي . وكان يكفي أن تكون المظاهر في صالح الموضوع المطروح . وكان من نتيجة هذاالطرح محو كل الدين الوثني .

وكانت هذه ، نعمة لم يكن ينتظرها الكتّاب المسيحيون الذين تبنوها في رضى ، وجهدوا كي يبرهنوا أن الآلهة ـ حتى في اعتراف الوثنيين أنفسهم - ليسوا سوى محتالين وغاصبين .

من هنا أن الجهد الكبير في عقلنة الأساطير ـ بعد تفريغها من مادتها الحية ـ جرّدها من كل مبرر وجود . وبهذا كانت الايفيميرية ، رغم كل اغراءاتها ، عملية نفي قاطع للفكر الأسطوري .

الفصل السادس

الأساطير ازاء العلم الحديث

بعد تجريدها من هالة الحقيقة الموحاة ، لا تعود الأساطير تطرح أية مشكلة فكرية . انما يبقى السؤال : هذه النصوص « اللاعقلانية » كيف وجدت لها طريقاً الى معتقدات الناس ، وأكثر : أوجدت شغلاً لمخيلتهم ؟ والواقع ان الأقدمين أنفسهم طرحوا أيضاً هذا السؤال ، محاولين البحث عن تفسير للأساطير . لكن تفسيراتهم تبقى بغير أهمية . ولا يمكن ، اليوم ، الإعتقاد ـ على صعيد الفكر العلمي ـ بأن الآلهة الوثنيين اختراع شيطاني لعقول خبيثة ، هي نفسها التي ، على ذمة مؤرخي بلوتارك ، كانت تبكي « موت الإله بان » حين ، خلال حكم أوغست ، حلّت القوانين الجديدة مكان القديمة . ومن جهة أخرى : الاقرار (كما فلاسفة القرن الثامن عشر في الغرب) ان في وسع المخيلة البشرية افراز هذيان كثير حين هي ليست تحت سلطة العقل والمنطق ، هو رفض للمسألة ككل ، وانكار ومضة الجنون الهاذي الذي هو واقع يحتاج بدوره الى تفسير . وما سوى في القرن التاسع عشر ، حتى بدأت الميتولوجيا القديمة تستحوذ على الدراسة الجدية ، على انها موضوع معرفة وتحليل .

وجاء التجديد في صورة ساذجة وان هي أحدثت ثورة في الطريقة

المنهجية ، اعتمدتها اليوم منهجيات عديدة . ويعود الفضل في تفسير الأساطير الى الألسني ماكس مولر الذي اخرجها من حجرها التقليدي الضيق ، بعدما كان درس القصائد السنسكريتية ، وظنّ انه وجد ، في اقدم الآداب الهندية ، (الفيدا) الأشكال الأولى للمعتقدات والأساطير ، وبدا له أن الآلهة كانوا في الأصل اسماء معطاة لقوى طبيعية . وهو تخيل أن « البشر الأولين » ، اذ صعقتهم ظواهر الطبيعة ، بدأوا يعطونها أسماء انتقلت تدريجياً الى أشخاص ، على اعتبار الفكر البدائي عاجز عن تشخيص المجردات . وهكذا صارت الحياة الكونية تكتسب حياة .

وحاول ماكس مولر أن يعطي ، في بعض تفصيل ، أمثلة عن هذا المبدأ : فكما نور الشمس هو ينبوع كل حياة ونشاط ، أعطي للنظام الشمسي ككل ، طابع أهمية قصوى . لذا ، يرى ان صراع زوس (وفي اسمه معنى النهار) ضد التيتانيين ، ليس سوى الصراع اليومي بين النور والظل ، وانتصار الأول على الثاني . والأشكال الهائلة للعمالقة ، ترمز الى ضباب الليل ذي الامتداد اللامتناهي . ثمّ : طيفون هو العاصفة ، واتينا (وهي متحدرة من زوس) هي الضوءة العذراء للفجر . وهيفايستوس هو الحداد الذي يفتح جمجمة زوس ، ليس سوى وهج الشمس الطالع ، الشبيه باسطوانة الحديد المحمر من الضرب الإلهي . وهكذا ، يصبح هيراكليس ، بدوره ، « اسطورة شمسية » . والأعمال الاثنا عشرهم الاثنتا عشرة إشارة للفلك البرجي ، والاثنتا عشرة مرحلة للدورة السنوية التي تقوم بها الأفلاك . وهكذا ، تدريجياً بواسطة تأويلات غير ثابتة ، صارت الميتولوجيا كلها مجرد تأملات في الطقس وتغيرات المناخ .

طبعاً ، أفكار ماكس مولر هي أبسط بكثير ، وتبين اليوم ان الأساطير

وخاصة العصور الأسطورية ، لا تتأتى عن مرض لغوي . وبدا ان التفسيرات الرمزية التي تطبّق الأساطير على الظواهر الفلكية أو ظواهر الطقس ، ليست بهذه البدائية ، بل هي ناجمة عن تأملات متأخرة . فهذا ، مثلاً ، جانوس ، الإله الروماني ، لم يعتبر رمزاً للسنة ، الا تحت تأثير بيتاغوريي روما ، مع القرن الأول الميلادي ، فيما هذا الإله وأساطيره أقدم من ذلك بكثير . وفي الديانة المصرية ، يبدو ان اسطورة أوزيريس وايزيس (الأسطورة الشمسية المعروفة) ، ليست بدائية ، بل تختصر لاهوتاً كاملاً مولوداً من التفكير الكهنوتي . فلهذه الأسباب جميعها ، (ولغيرها كذلك كما مثلاً عدم دقة تأويلات مولر اللغوية ، والعودة الى مرجع أدق حول مكانة اللغة والقصائد السنسكريتية في تاريخ الشعوب الهندو- أوروبية ، والى تحليل أدق للفكر البشري والمجتمعي حيث لم تخبُ الظاهرة الأسطورية بعد) ، يمكن التخلي عن النظرية الألسنية لتفسير الأساطير ، دون انكار فضلها ، ولا فضل ماكس مولر الذي اخرج الصراع عن دائرة الميتولوجيا الكلاسيكية ، الى مقابلة مع قطاعات أخرى ، وبين أهمية الألفاظ واللغة عموماً في تكوين هذه الأساطير .

وتأتي أعمال مانهارت وفريزر ، فتعرف تفسيرات الأساطير مرحلة جديدة . والطريقة : ايغال ولادة الأساطير في الحاضر وتحت المجهر . ويكفي ، لهذا ، التوجه الى المجتمعات التي حافظت على طاقة خلق الأساطير وما تزال تخلق حتى اليوم . بهذا ، ولدت طريقة المقارنة المنهجية ، مرتكزة على فرضية أن مراحل الفكر البشري متشابهة ، أياً كان الشعب وأياً كان العنصر . فالأسطورة الاغريقية أو الرومانية يمكن تفسيرها على ضوء الأسطورة البولينيزية أو البانطوية . وكلتاهما تتجاوب وفرضيات

عميقة في الفكر البشري . مثلاً : الايمان بالخلود ورفض الموت ، عاملان يراهما فرايزر من خصائص الإنسان . فالبدائي ، يرى الموت حادثاً طارئاً لا مفر منه ، وهو ناجم عن تدخل قوة شريرة . وحول هذا الموضوع ، قامت طقوس ، أهدافها تنمية القوى الحيوية وكبح النفوس المنافسة . ولتطبيق نظرياته ، استعمل فرايزر طريقة ممارسة لاتينية : كان في نيميا ـ قرب روما ـ غابة مقدسة تحت سلطة الإلهة ديانا . وكان كاهن المعبد يسمى « ملك الغابة » وجد فرايزر في ملك الغابة صورة جوبيتر « إله الرعد والسنديان» وإذا قُتل في ميتة عنيفة ، فعن شك في الشيخوخة والمرض أو العجز الجسدي ، مما لا يُضعف لديه الفكر الحيوي ولا يقتل الطبيعة كلها . فالكاهن المغتصَب ـ الذي يثبت عجزه اذ يواجهه شاب أقوى منه وأصغر سناً ـ يشكل خطراً كبيراً للجميع . وتدريجياً ، برهن فرايزر أن النصوص الأسطورية تحتفظ بأثر من الممارسة الواقعية ، ولو جاءت مطابقة لامتحانات ملوك أو لتضحيات بشرية (كما تقطيع الملك ليسورغ وفق أوامر ديونيسوس ، أو كما عقاب استيداميا التي جزئت قطعاً نُثرت في كل مدينة ايولكوس) ، أو مطابقة حتى لولائم اكل لحوم البشر . كما في اسطورة تييست وبيلوبس . وجميع أساطير الأطفال تجد مماثلة لها في أميركا أو افريقيا ، حيث المولود الأول محرّم ومحلل لـ « الأكل » ، واذا لم يقتل أو يؤكل فهو يعرض حياة والده للخطر ، واذا كان هذا الأخير ملك قبيلة يعرض الطفل غير المأكول حياة القبيلة كلها للخطر . وهي هذه ، نواة أولى لروايات اسطورية كثيرة ، وهذه ممارسة زال مدلولها وتعدلت وتبدلت (ونحن نعلم ان الشعوب البدائية تفسر دائماً تقاليدها بأن « الأقدمين كانوا يتصرفون هكذا ») ، انما تركت بصمات جماعية على شكل أسطورة . وقصة أوديب خير استشهاد على ذلك : فهو مولود على عكس ارادة

العراف ، وحكم عليه ان يموت . لكنه أنقذ صدفة ، وصار يشكل خطراً لا على أبيه فقط وهو قتله ، بل على كل مدينة ثيبا التي جلب لها ، بوجوده فيها ، جميع أنواع النكبات . ويجد فرايزر للتضحيات باكبر الأولاد في العائلات الملكية ، تفسيراً لتاريخ فريكسوس وهيلّيه اللذين يجعلهم الشعراء الاغريق في أصل عصر الاغونيين : فإنّ الجوع استبد في إحدى مقاطعات تيساليا ، ولم يكن ممكناً انهاؤه الا في التضحية بولدي الملك أتاماس . لكن هذين ، وهما فريكسوس وأخته هيلّيه ، تمكنا من الهرب بفضل الحمل ذي الجزة الذهبية . انما ، لاحقاً ، جُنّ اتاماس فقتل ولده ليارك الذي كان أنجبه من زواج آخر ، فيما زوجته قتلت ولدهما الثاني ميليسرت اذ قذفت به وبنفسها الى اللجة . وعهدئذ ، كانت العادات أن بين ابناء آتاماس ، ممنوع على بكرهم دخول مسكن القضاة في المدينة تحت طائلة عقوبة الموت . وتتوافق جميع هذه الوقائع : فأسطورة اتاماس ، والتهديدات الراصدة كل بكر من أحفاده ، تشير حتماً ، في تلك المقاطعة التيسالية ، الى وجود طقس خاص للقرابين موجود في ميادين أخرى .

وهكذا ، تبدو اليونان انها ليست شواذاً على تاريخ الفكر البشري ، وانها تخضع للقانون العام .

وهذه نتيجة مهمة : فالأساطير اليونانية ليست ، منذ نشأتها ، افرازات معجزات مجهولة . والتنقيبات التي أجراها الباحثون بعد فرايزر ، حول العادات الشعبية ، والطقوس ، ليس لدى الشعوب البدائية فقط بل ضمن استمراريتهم وأشكالهم المتطورة لدى البلدان الأكثر تحضراً وتمدناً في الظاهر ، بيّنت مواضيع كبرى تمحورت حولها الأساطير أجمالاً : كما طقوس « العبور » من طبقة اجتماعية الى أخرى ، طقوس التدريب ،

والطقوس الجنائزية ، وطقوس استدرار المطر ، وطقوس السحر المخصب وسواها . وبهذه الطريقة ، يمكننا التوصل الى عدد من الأطر ، أو المعادلات التي توصلنا الى تحديد أصناف الأساطير . وفي هذا التصنيف ، حتماً ، تطور وشرح حقيقي . مع طريقة المقارنة ليست كافية في ما هي عليه . فهي مبنية على تقاربات متعددة بين ميادين مختلفة ، وقد يبرز عند المؤلفين نوع من التحذلق في البحث عن مقابلات مماثلة في مجتمعات متباعدة مكاناً وزماناً . مع ان من الطبيعي ، كون المشابهات الملموسة تبقى خارجية وغير فعالة . فالعمود ذو الوجهين في جزيرة سورينام ، لا ينبئنا عن طبيعة الروماني جانوس وعصره . وفي كلتا الحالتين ، المقصود شخص ذو وجهين ، أو تشخيص شخص ذي وجهين متضادين . ولكن ، كيف الوصول الى ما بعد ذلك ؟ ان المواضيع الشعبية المستقاة من هذه المنابع ، وفي عموميتها الشاملة ، ليست سوى صورة أو شكل مبهم ، لا يبرز من خلاله واقع الأسطورة الاغريقية . والتذكير ، مثلاً ، بأن الألغاز المطروحة من السفنكس على أوديب تنتمي الى صنف معروف من التجارب المطروحة أمام الملك قبل تسلمه الملك ، يمثل تطوراً هائلاً ، انما هو لا يفيدنا في شيء لفهم ما يمكن للمغامرة نفسها ان تعني لليونان . وعلى الحاح البحث عن العموميات في التفسير ، نفقد الجوهري ، وهو الطابع المتفرد والشخصي لكل أسطورة .

ربما لذلك ، قامت قبل سنوات ، طريقة جديدة سميت « مقارنة » ، انما مختلفة عما لدى فرايزر ومانهارت ، مما يدعى « الطريقة السوسيولوجية » . والممثل الأبرز لهذه المدرسة في فرنسا هو دوميزيل الذي ضوأت اعماله ، في غير ميدان ، على الأساطير والميتولوجيا الكلاسيكية . وتجد هذه الطريقة ان

المقارنة لا يجب أن تقوم دون تمييز بين الميادين المختلفة ، كما ، مثلاً ، استنتاج ان أسطورة لابونية متأثرة بأسطورة يونانية قديمة أو رومانية . بل يجب أولاً ، لاستحصال قيمة علمية ، الانحصار في داخل القطاع الهندو ـ أوروبي ، اي ان المقاربات تتبوتق بين حضارات ذات قرابة متصلة بالدراسة الألسنية . من هنا يمكننا ، مع بعض التحفظ ، ان نستنتج من « الفيدا » ، هذا الامر ، في ربطها بالأساطير الغاليّة أو الجرمانية ، لأن جميع هذه الشعوب تتكلم لغات متقاربة ، متحدرة من اللغة الهندو ـ أوروبية المشتركة ، في تاريخ قديم سابق ، وميتولوجيا كل لغة تكون ثمرة انطلاقة تبدأ من مجموعة معتقدات وطقوس ، على العالم ايجادها ، في ما هو أبعد من المتغيرات الاقليمية .

تطبيقات تلك الطريقة ، غالباً ما كانت مقنعة ، ونتائجها فعالة . وهكذا بين دوميزيل ، في أحد أوائل كتبه ، أن جميع القطاعات الهندو ـ أوروبية كانت تملك بصمات تقاليد عريقة حول تحضير واستهلاك « دواء للخلود » . واندرجت هذه التقاليد في عصور « طعام الالهة » كما ورد في قصائد الفيدا ، وفي «افستا » الفرس ، وفي« تيوغونيا » الاغريق الهيزيودية . وهكذا كانت « جرة » باندور ، الشكل الهيليني لحوض المياه الكبير ، الذي تعرفه الروايات الجرمانية للعصر . ونمت في كل مقاطعة ، المعطيات الأولى ، وتبدلت وتغيرت ، وفق طابعها الخاص ، لكنها بقيت ، في النهاية ، طقوساً وطرائق تفكير من الميدان الهندو ـ أوروبي المشترك ، المتواجد خلال جميع المتغيرات .

وتوغل دوميزيل أكثر في أبحاثه ، ليبرهن أن هذه المعتقدات الرومانية (الموازية لعبادة جوبيتير أو حكاية هوراس المزعومة أو حكاية الملك

سرفيوس) لم يكن لها من تفسير الا بعد إدخال عوامل اجتماعية عليهـا ، سابقة لولادة المدينة نفسها أو الشعب اليوناني . وهـذه ، مثـلاً اسطـورة هوراس تصلنا في حبكة حول طقس خاص ، وتجارب فرضت على المحارب الشاب المقبول الى بلوغ الطبقة التي تناسب سنه .

مع هذا ، رغم نجاحاتها الثابتة ، وجدت هذه الطريقة صعوبـات في تفسير الأساطير الهيلينية (اليونانية القديمة) . فالمشابهات ، هنا ، متباعدة وغامضة ، كما لو ان عوامل خارجية جاءت تعـكر استمرارهـا المنسـاق . ويبدو أن التقاليد الهندية الأوروبية غير كافية لاظهار جميع العنـاصر التـي تحتويها الأساطير الاغريقية . وثمة محـاولات كثـيرة جرت منـذ القـدم في حوض بحر ايجيه ، كي لا تكون النتيجة مجـرد استنتـاج معقـد قد يكون أساسه غريباً هو الآخر عن الميدان الهنـدو ـ أوروبـي . ولمرات عديدة ، أشرنا في هذا الكتاب الى جذور ايجيه أو ما قبل اليونانية القديمة ، لمعتقد أو لآخر ، كما لبطل أو لآخر . والبلدان السامية كان لها هي الأخرى تأثيرها في سواها ، إلاّ مصر . والأمر حول هذا شائك جداً : فهيراكليس له طبائـع آكية ، لكنه أثر من خلالهـا في البطـل الأسيوي جلجـامش ، وكذلك في الطريقة المقارنة الجديدة التي ، اذ تُستنفد الى آخرها ، يُخشى أن تفقد تفرد الأسطورة . وكما جميع المحـاولات لتحـديد التفـاصيل في تاريخ التطـور التاريخي ، هكذا الافتراضات المبنية على وقائع غير أكيدة ، وغير معروفة ، بل مُفترضة ، لا تستطيع أن تقدم الا صورة باهتة ودون يقين ملموس .

أخـيراً . . . حتـى الفلاسفـة والسيكولـوجيون المعـاصرون شاركوا في العمل على الاساطير . ورأى بعض العلماء النفسانيين أن الأسطورة افضل مسرح للرموز والاعلاءات النفسية . وبهذا ، تصبح الميتولوجيا شبه وعي

للشعوب القديمة ، ترتسم فيه آمالهم ورهبتهم وكل ما كان يرفضه وعيهم . والواقع أن في الأساطير مغامرات لا أخلاقية ، وخيانات وجرائم ، كما وجدها أتباع فرويد وتلاميذه . ولا يهم اذا كانت هذه المغامرات سابقة لزمن قيام الشرائع التي تحرم تلك المغامرات . وهي تنبىء عن النفس البشرية التي اتخذت أجساماً لها الاحلام والكوابيس .

وكان للعلم النفساني ، من حافز مهم ، ان احتوى الأساطير فوهبها حياة وديمومة عصرية للأساطير القديمة . فبواسطته ، صارت أساطير كثيرة خالدة : عقدة أوديب مثلاً ، أو عقدة الكترا . صحيح أن الخيانة في الحب ، أو حقد الأم ، أو حقد الأب أو الرغبة أو الشهوة ، جميعها واردة في المواضيع الأسطورية القديمة ، انما ، هي كما في كل ضمير بشري ، وتحت شكل سري .

ومن هذا المنظار ، تتخذ الأساطير قيمة خاصة ، اذ تحمل مواقع محددة ، ومواقف روحية مؤسلبة . فثمة تجربة انتيغون ، وتجربة أوريست اللتان تدخل فيهما تجاربنا الخاصة ، لأن التجربة ليست جديدة . وهو هذا ، ما فعله اشيل إذ استعار أسطورة بروميتيه ، كان يجهل حتماً ان هذا الأخير هو من تناسخات عصر امبروازيا ، لذلك حوّر وجهه من أصله ، الى وجهة منقذ تبقى مآثره على التاريخ .

المراجع

P. DECHARME, *Mythologie de la Grèce antique*, Paris, 6ᵉ éd., 1930

L. GERNET et A. BOULANGER, *Le génie grec dans la religion*, Paris, 1932.

G. MÉAUTIS, *Les aspects ignorés de la religion grecque*, Paris, 1925.

M. P. NILSSON, *The Mycenean Origin of Greek Mythology*, Oxford, 1932.

M. P. NILSSON, *Geschichte der griechischen Religion*, Munich, 1941.

P.-M. SCHUHL, *La formation de la pensée grecque*, Paris, 1934.

L. RADERMACHER, *Mythos und Sage bei den Griechen*, 1938.

L. PRELLER, C. ROBERT, *Griechische Mythologie*, Leipzig, 1887-1926.

H. J. ROSE, *Handbook of Greek Mythology*, Londres, 2ᵉ éd., 1933 (trad. allemande par A. E. BERVE-GLAUNING, Munich, 1955).

P. GRIMAL, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris, 3ᵉ éd., 1963.

W. K. C. GUTHRIE, *The Greeks and their Gods*, Londres, 1950.

A. BRELICH, *Gli eroi greci. Un problema storico-religioso*, Rome, 1958.

F. BUFFIÈRE, *Les mythes d'Homère et la pensée grecque*, Paris, 1956.

A. VAN GENNEP, *La formation des légendes*, Paris, 1910.

M. GRANT, *Myths of the Greeks and Romans*, Londres, s. d. (1962).

Cl. RAMNOUX, *La Nuit et les enfants de la Nuit de la tradition grecque*, Paris, 1959.

A. SEVERYNS, *Les dieux d'Homère*, Paris, 1966.

فهرست

منشورات عويدات ٦٨٠/ ١٩٨٢

Pierre GRIMAL
Professeur à la Sorbonne

LA MYTHOLOGIE GRECQUE

Traduction Arabe
de
Henri ZOGHAIB

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris